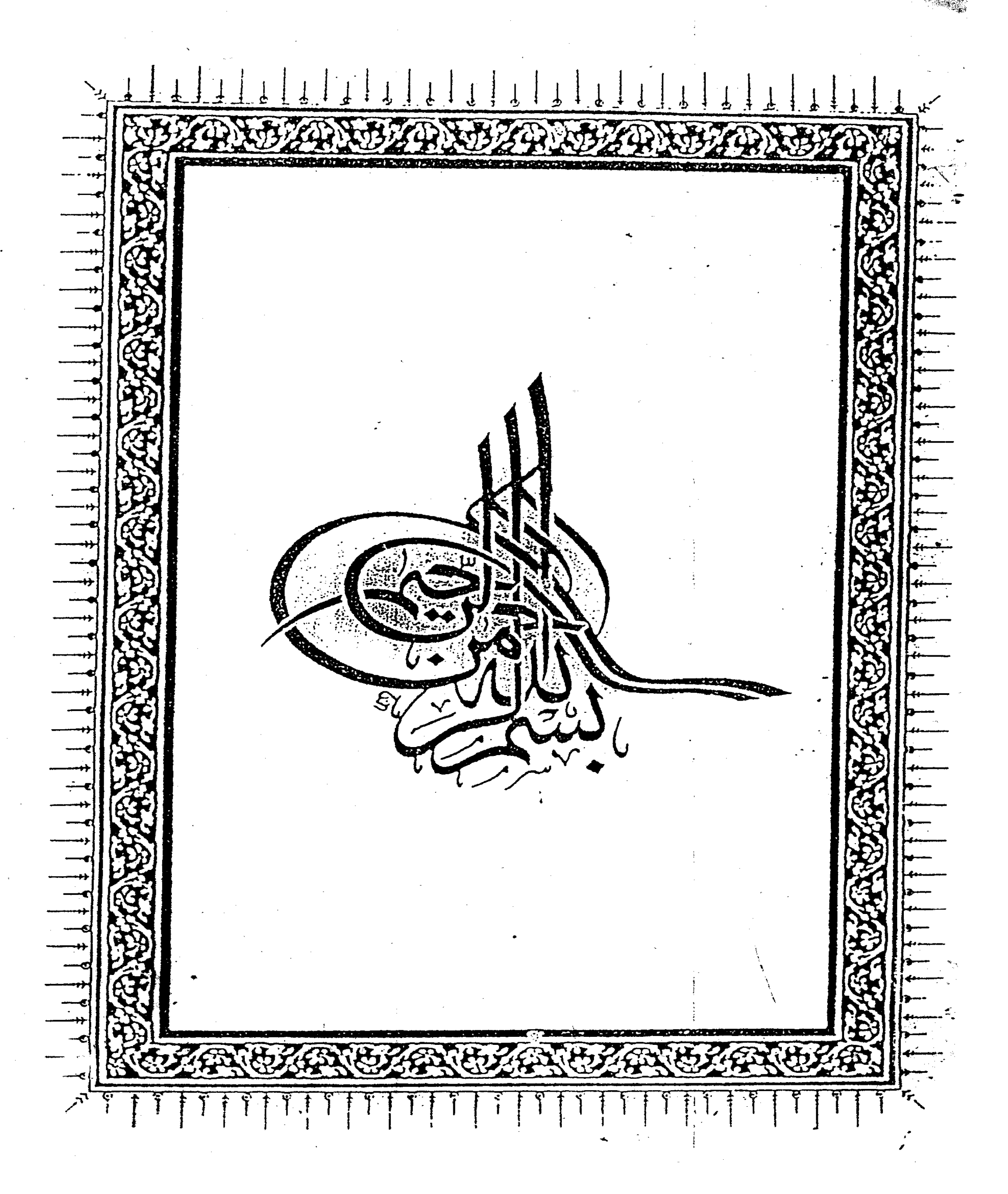
معالم البلاغة العربية

دراسة وتطبيق على ضوء
آى القرآن الكريم

بقلم

الدكتور / محمد على أبو زيد


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أكرم أمة الإسلام بالقرآن الذي جعله لسانا عربيا. والصلاة والسلام علي أفضل الخلق وأفصح من نطق وأبان عن الله مراده وعلى آله وصحبه والتابعين والعلماء العاملين من بعده إلي يوم الدين

وبعد

فمن الثابت والمعلوم أن من أهم الخصائص الكبرى التي امتن الله تعالى بها علي البشر أن وهبهم العقل الذي به الفكر ومحل التدبير والتمييز بين الأشياء، ثم وهبهم اللسان الذي هو أداة التعبير وبه النطق والإبانة وإذا كان هذا الأمر مسلما به وثابتا فمما ينبغي أن يكون معلوما وثابتا كذلك أن البلاغة إنما تعني وتقصد إلي البحث عن الكيفية التي بها التعبير والإبانة باللسان عن المعاني والأغراض التى تدور فى الذهن ويرمي إليها المتكلم حتي يأتي الكلام موفيا بتمام المراد والغرض فليست البلاغة بهذا المعني ترفا من القول يصير إليها من أراد ويبتعد عنها من أراد ، بل هى حاجة وضرورة لاغناء عنها خاصة والكل يعلم أن أهم مقاصد البلاغة بل وسائر علوم اللسان خدمة القرآن الكريم الذي أكرم الله تعالى أمة العرب بأن جعله علي لسانها وتدبره إجابة لأمر التكليف بذلك ، واستشراف لطائفه ودقائقه والوقوف علي خصائص تراكيبه حتي يكون فهمنا أقرب إلي الصواب ثم ليتأكد لنا أمر الإعجاز الذي هو ثابت منذ نزل وسيظل ذلك شأنه، فدارس البلاغة لايطمح إلي الوقوف على حقائق الإعجاز لأن هذا فوق كل جهد وغاية، لكن ذلك لايمنع من التماس بعض من أسراره وخواصه ليكون بمثابة الدلائل على أمر الإعجاز لمن أراد الدليل ، وليتيسر لذلك أيضا الرد علي أولئك الطاعنين على القرآن والمترصدين له ممن يثيرون الشكوك والريب حول القرآن الكريم وأساليبه ، ويحاولون ذلك الأمر الذي يستوجب علي من تفضل الله عليهم بالاسلام أن يتصدوا لمثل هذه الشبهات المغرضة بما هو الجواب المستخلص من القرآن ذاته وتبصره ، وحينئذ تنقطع الشبه وتنحسر الريب إلا من مكابر أو جاحد .

وكذلك فإن الأحاديث الشريفة لرسول الله - صلي الله عليه وسلم - تعد ميدانا رحباً لدارس البلاغة ولمن أراد تمثل الأنماط العالية من فنون القول، حيث يمثل كلامه عليه الصلاة والسلام أفصح وأبلغ ماقيل وسمع من كلام العرب، وهو الأنموذج الأعلى للكلام العربي مما نطق به البشر ومن ثم عد كلامه عليه الصلاة والسلام نمط في البلاغة وحده ورتبته تالية للقرآن الكريم المعجز والفائق على كل كلام .

ويبقي من بعد ذلك الأدب منظومه ومنثوره ميدانا لهذا الفن يتجه إليه النقاد ودارسو الأدب تحليلا وكشفا لوجوه الحسن أو القبح فيه .

ومما سبق يتبين أن القرآن الكريم والسنة المشرفة ثم ما أنتجه الشعراء والأدباء يمثل المادة التى تدور عليها بحوث البلاغة ، وإن بقي القرآن الكريم وما يدور حول إعجازه وما يتصل به من كلام رسول الله - صلي الله عليه وسلم - الشارح والمبين هو المقصد الأول والأصل لعلوم البلاغة بل ولسائر علوم العربية، ومن هنا كانت العناية بشئون تلك العلوم قديمة ومبكرة منذ الصدر الأول وإن بدت أول الأمر في عبارات أو إشارات، ثم لما صار عهد التأليف كان للبلاغة فيها نصيب، حيث أفردت بعض فنونها ووسائلها بفصول خاصة ضمن هذه المؤلفات علي نحو مانجده عند أمثال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن، والجاحظ في البيان والتبيين والمبرد في الكامل ، ثم ألف ابن المعتز كتابا تحت اسم البديع ذكر فيه ألوانا من البلاغة وحدّ كلاً منها واستشهد بالقرآن الكريم والحديث الشريف والأدب ، كما أن النقاد العرب أمثال الآمدي والقاضي الجرجاني وابن سنان كانت لهم جهود مهمة حتى جاء إمام البلاغة عبد القاهر فأعاد صياغتها من جديد، ودرس مسائلها مستلهما عقله وذوقه وثقافته فجاءت دراسته لضروب البلاغة تمتاز بالتحديد والتحليل والتماس وجوه الفرق بين الضروب ، وقد أفاد من ذلك أمثال الزمخشري، فقد تمثل كثيرا مما نبه إليه عبد القاهر وأحسن التطبيق في تفسيره الكشاف ، غير أنه قد ظهر من بعد اتجاه آخر يميل أكثر إلى جانب التدقيق النظري والبحث العقلي على ما كان عليه حال العصر ورجاله فاتجهوا بالبلاغة إلي ناحية التقعيد والتحديد والتقسيم والتفريع وتوليد المسائل بعضها من بعض علي نحو ما كان الحال عليه عند السكاكي في كتابه المفتاح وعند رجال مدرسته أمثال الخطيب في كتابيه التلخيص والإيضاح ،

وما انتاجاه من شروح وحواشي وما استجلباه من مناقشات ومناظرات ، وإن كان ذلك كله لم يخل من فوائد تتصل بالجانب العلمي الخالص لعلوم البلاغة الثلاثة لكن الذي لاشك فيه أن هذا الاتجاه قد خلف آثاراً غير مستحسنة في طبيعة الفن البلاغي واعتماده علي أمر التذوق للأساليب وتبصر دلالات التراكيب إلي غير هذا مما يعود علي البلاغة بالنماء وأطيب الثمرات .

وقد عرضت في هذا الكتاب لفصول من البلاغة بعضها يعود إلي علم المعاني وهي حذف المسند إليه ، وذكره معرفا بالضمير ، أو العلمية ، أو الموصول ، وكذا الالتفات، والأسلوب الحكيم ، وبعضها يرجع إلي علم البيان وهو التشبيه ، والمجاز المرسل والكناية ، وبعضها من علم البديع وهو الطباق ، والمقابلة ، والتورية ، والجناس .

وقد اجتهد في أن يأتي الأسلوب علي أقرب ما يكون إلي الوضوح والإبانة عن هذه الموضوعات ، كما قصدت إلي الجمع بين ذكر القواعد والأصول التي لابد منها وبين التحليل المستفيض ، وإن كان الميل أكثر إلي جانب التطبيق وكثرة الاستشهاد ، والتنبيه ، علي ما في النماذج من أسرار وخصائص ، كما كانت العناية أشد بالأمثلة من القرآن الكريم والحديث الشريف وإن لم يهمل مأثور العرب وكلام البلغاء منثوره ومنظومه .

والله وحده هو المستعان وهو الهادي الي سواء السبيل

د/ محمد علي أبو زيد

الزقازيق في جمادى الآخرة ١٤١٤هـ

من علم المعاني

أهم الأغراض البلاغية لحذف المسند إليه وذكره

الحذف

حذف الحرف

الأصل في الكلام ذكر ما يدل عليه ، لكن قد يطرأ على الكلام ما يستدعي حذف شيء منه لغرض يقصد إليه المتكلم ، أو لمغزى يعود إلى حال الكلام أو المخاطب ، فحينئذ يصير الحذف أولى وأبلغ من الذكر .

والحذف البلاغي قد يتناول حروف الكلمة ، وإن لم ينته إلى ذلك أكثر البلاغيين سوى بعض الإشارات التي نقرأها عند بعض أئمة اللغة والأدب ، كما يكون بحذف أحد أركان الجملة (المسند إليه أو المسند) وكذلك ما يعرف بالمتعلقات أو القيود من نحو حال وتمييز وسائر المفاعيل .

وكما سبق الإشارة فإنه لا يصار إلى شيء من تلك الحذوف إلا حين يكون الحذف محققا لمعنى وغرض يفوت بالذكر .

فقد ذكروا أن الحذف في الحرف في مثل قوله تعالى : " فنادوا يا مال ليقض علينا ربك " بفائدة ومعنى ، فإن حذف الحرف الأخير من المنادى يشعر بضيق الحال ، وشديد الفزع والعناء والهم الذي عليه هؤلاء المعذبون حين اشتد عليهم الأمر في شواهم جهنم والعياذ بالله فراحوا يتكلمون بما يرجون فيه خلاصا حتى ولو كان بموتهم وذهابهم أصلا ، ولكن كيف ذلك ومستقرهم العذاب وهم خالدون فيه أبدا ، فلا موت إذن كما يرغبون ، ولكنها سوء الحال التي ألجأتهم إلى مثل هذا وكأنها هي التي أيضا لم تيسر لهم ذكر الكلمة بتمامها ، فكان في مجيئها على هذا النحو إذن إشارة إلى ما هم عليه .

وكذلك قالوا إن الغرض من حذف حرف النداء في مثل قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام على لسان العزيز حين أرادت زوجه السوء بيوسف : " يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين " حذف حرف النداء في مثل هذه المواقع والأحوال يشير إلى معنى قصد إخفاء الأمر أو ستره من قبل العزيز ، فهو ملك وكل أمر في مثل بيوت هؤلاء يعرف ويتلقف وتتناقله الأسماع ، وتتناوله الألسنة خاصة إذا ما كان الشأن على مثل هذا الذي جرى عليه في بيت عزيز مصر ، فهو أمر فاحشة وخطيئة ، يتصل مباشرة بعرضه وزوجه ، فالأمر حينئذ خطير ويتطلب بذل الجهد في محاولة ستره أو إخفائه ما تيسر إلى ذلك سبيلا ، والميسور هنا في خطاب العزيز ليوسف عليه السلام حذف حرف النداء ، إذ في ذكره حرف النداء ياء بما فيه من امتداد الصوت ما يعين على إذاعة الأمر وسماع من لا يرغب في سماعه ، فكأنه يهمس إلى سمع يوسف عليه السلام ويسر إليه ، وكأنه أيضا يتلطف به ويتودد إليه ، أو يسترضيه ، فحذف الحرف إذن يكون لمناسبة المقام إشارة لضيق الحال ، كما سبق أو لستر الأمور وإخفائه ، وإظهاراً للتلطف كما هنا .

حذف المسند إليه وأهم الأغراض الداعية إليه .

المسند إليه كما هو معلوم جزء أساسي وأحد أركان الجملة ، فالأصل فيه الذكر ، لكن قد يعرض للمتكلم من الأغراض ما يصير حذفه أولى وأبلغ .

ومن أهم ما ذكر من هذه الأغراض : الرغبة عن ذكره وإبدائه على اللسان إشارة إلى تحقير أمره ، وذلك يتجلى فيما يذكره القرآن في قصة موسى عليه السلام حين استفتى الطاغية فرعون ملأه في شأن موسى عليه السلام : « قالوا ساحر كذاب » فلم يشاءوا أن يجري ذكر موسى عليه السلام على لسانهم مع أن الكلام الذي قالوه أرادوه به ونسبوه إليه ، فكان الأصل ذكره ، غير أنهم قصدوا الإشعار بتركه الى عدم محبتهم له وما جاء به فليهمل ذكره .

كما قد يكون حذف المسند إليه ، لأنه متعين فى الذهن فلا ينصرف الكلام لغيره ، وذلك يتجلى فى تلك الشئون التى هى من خصوصيات الألوهية والربوبية ، فلا يشاركه فى شئ منها أحد غيره تعالى من سائر الخلق ، فحسين تذكر ينصرف الذهن فى نسبتها إلى الله تعالى ، مثل قوله تعالى : " عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال " .فإن مثل هذا العلم والجمع بين علم ما غاب وما شوهد لا ريب فى أنه لا يكون إلا لله تعالى وحده ، فأمر نسبته إذن إلى الله تعالى معلوم ومتعين .

وقد يقصد الشعراء إلى هذا الغرض فيحذفون المسند إليه العائد إلى من يحبون، يخيلون بذلك وكأن مثل هذا الكلام معلوم نسبته إليهن ، فلا يخطئه الفهم فهن مشهورات بما يذكر حتى وإن لم تذكر أسمائهن أو غيرها مما يقوم مقامه ، وهذا فى الشعر كثير نظير قول الشاعر :

غراء فرعاء مصقول عوارضها ... تمشى الهوينا [illegible]

فالشاعر هنا يذكر صفات حسان دون أن يرجعها إلى معينة ومشخصة ، بالعلم أو ضميرها مثلا ، وهو بذلك يتصور أو يريد أن يصور أن أمره معروف حتى كأن هذه الصفات لا تنسب إلا لمن يريد هو ، ولعلك تدرك الفرق بين أمثال هذا الذى يقصده الشعراء وما كان عليه الأمر فى النظم القرآنى ، فمع اتحاد الغرض إلا أنه فى الشعر مبناه على التخييل والتقدير والمبالغة ، وأما فى النظم القرآنى فمراعاة لحق وواقع ثابت .

وأما قوله تعالى " الذى خلقنى فهو يهدين، والذى يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين "

فقد ورد معه المسند إليه صريحا ومعبرا عنه بالضمير فى بعض المواقع على حين حذف المسند إليه فى مواقع أخرى .

فحيث كان الحديث على أمر الخلق فى الآية الكريمة الأولى ، وكذلك الحديث عن أمر الإماته والإحياء للبعث ورد النظم الكريم على حذف المسند إليه لتعينه تعالى فاعلا لتلك الأمور التى لا يشاركه فيها أحد فلم تنسب لغيره سبحانه ، وأما مع الهداية والإطعام والسقاية والإشفاء فقد أثر النظم الكريم ذكر المسند إليه المعبر عنه بالضمير " هو " وذلك أن أمثال هذه الأمور مما يمكن أن تنسب لغيره تعالى ولو على وجه التجاوز فكان ذكر المسند إليه حينئذ متعينا لإزالة لبس المشاركة وتعيينا للمراد . فانظر كيف كان كل من حذف المسند إليه محققا لغرض ومغزى حث عليه الحال واستدعاه المقام ، كما كان ذكر المسند إليه مفيدا ومتعينا وفاء بحق المعنى والغرض أيضا .

وقد يكون فى ترك ذكر المسند إليه مراعاة لحذر وخشية ، إذ ربما كان فى ذكره لحوق ضرر ، وذلك يتضح فى مثل ما أجاب به الصديق على ما يؤثر عنه حين سئل عمن معه ، فأجاب : هاد يهدينى الطريق ، فانظر كيف أن الفطرة الخالصة قد هدت الصديق أبا بكر رضى الله عنه إلى مثل هذا الجواب الذى لم يجاوز الصدق بل هو عينه مع أنه لم يفصح لهم صريحا بأسمه صلى الله عليه وسلم — إذ لو ذكر على هذا النحو لكان للكفرة وأهل الشرك ما يطمحون إليه حيث كانوا يطاردونهما وقد بذلوا فى ذلك كل جهد وحاولوا كل محاولة .

وسيلة للإمساك به ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنيل منه ، غير أن فطنة أبى بكر وخلوص قصده وصدق إيمانه كل ذلك قد ألهمه هذا الجواب الصادق الفطن ، فقد حال بترك المسند إليه وهو اسمه الشريف دون هؤلاء المعاندين ومآربهم ، ثم انظر فى جوابه ـ رضى الله عنه ـ حيث وقع فى جوابه هذه التورية البليغة فى قوله (هاد) حيث فهموا أن مراده دليل المسير والمرشد إليه ، فى حين أن الصديق إنما كان مراده فى الحقيقة هداية النبوة ، وطريق هداية النبوة والإيمان وطريق الحق والإسلام ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الهادى إلى الإسلام والإيمان والمبين لطريقه .

أهم الأغراض البلاغية لذكر المسند إليه .

سبق الإشارة إلى أن الأصل أن يذكر المسند إليه ليس فقط لكونه أحد ركنى الجملة بل لأنه أهم الجزئين من حيث كونه الأصل الذى يبنى عليه الكلام ، ويسند إليه ما يكون مراد الحديث ، فذكر المسند إليه إذن لكونه الأصل ، وقد يكون هناك غرض من وراء هذا الذكر يقصد إليه المتكلم ، ويفوت مع الحذف إما لضعف التعويل على القرينة المستدعية للحذف ، وأما الإشارة إلى عدم فطنة السامع والشك فى إدراكه لحقيقة المسند إليه إن هو لم يذكر ، أو الرغبة فى التقرير والإيضاح أو الحرص على صياغة الخبر فى صورة مؤكدة ، إلى أمثال هذه الأغراض العديدة ، والآن نشير إلى أهم هذه الدواعى البلاغية مع شئ من الإيضاح والتحليل .

فكثيرا ما نلحظ ـ خاصة فى كتب العلم ـ حرص العلماء على ذكر المسند إليه الذى يبنون عليه الأحكام والمعانى ، وإعادة ذكره وتكراره حرصا منهم على فهم المراد حتى لا يلتبس الأمر على القارئ فينسب الشئ لغير ما هو له ، فيؤدى ذلك إلى خطأ الفهم وفساد العلم ، ففى ذكر المسند إليه فى تلك الحال والتنصيص عليه وتعيينه أدعى إلى سلامة الفهم وبعد لكل لبس واشتباه ، كما يكون الغرض من ذكر المسند إليه قصدا إلى بسط الكلام وإطالة أمده ،

لأن للمتكلم فى ذلك إربا ، والمقام الذى يجرى فى شأنه الحديث يحرضه على الإطالة والذكر . اقرأ قوله تعالى فى شأن جواب موسى عليه السلام حين سأله به سبحانه وتعالى وهو الأعلم بكل شئ عما بيمينه : " قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى " .

واضح أن السؤال هنا مراد به تعيين ما بيمينه ، فكان يكفى فى الجواب أن يجيب موسى عليه السلام بقوله : عصاى ، ولا لبس ولا إشكال ، لكن هذا المقام : مقام تكليمه سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام قد أغراه وحرضه على الذكر والحرص على بناء الكلام عليه حيث قد جرى فى متعارف الناس ومعتادهم أنه حين يجرى الحديث والمحاورة بين أحباب يعمد المتكلم إلى ما يطيل أمد الحديث والمحاورة لأن ذلك يعبر عن أمر المحبة وفيه أنس للنفس المحبة ، وإذا كان ذلك هو الحال فى شأن متعارف الناس وما يكون فى محاورة أحدهما لغيره ممن هو مساويه ويشاكله من الناس ، فكيف الحال بموسى عليه السلام ، وقد اختصه الله تعالى ، وقد كانت تلك المحاورة بينه وبين الخالق عز وجل ، لا شك والحالة هذه أن الرغبة فى إطالة الكلام وبسطه أشد وأنسب بخصوص هذا الكلام ومقامه ، ثم إنك تلحظ أن موسى عليه السلام لم يكتف بذكر الجواب عما سئل ، بل استأنف وأفاض وعقب بذكر أغراضه من عصاه ، فقال : " أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى " ، وهو فى الحقيقة لم يسئل عن ذلك ثم عقب بكلام مجمل فقال : " ولى فيها مآرب أخرى " ، حتى وكأنه يتوقع أو يرجو بقوله هذا أن يسئل من قبله سبحانه وتعالى عن هذه المآرب الأخرى ، فيجيب موسى عليه السلام ويفيض ، وبهذا يتحقق له مزيد إطالة الكلام ، فالمقام يغريه لا ريب ، عليه السلام .

وأما قول الشاعر فى محبوبته لبنى :

ألا ليت لبنى لم تكن لى خلة .·. ولم تلقنى لبنى ولم أدر ماهيا

فنلحظ أن الشاعر قد أعاد ذكر اسم محبوبته لبنى فى الشطرة الثانية فى قوله : (ولم تلقنى لبنى) مع أنه قد ورد ذكرها من قبل فى الشطر الأول ، فكان

يمكن حينئذ الاكتفاء بالذكر أولا ، لكن الشاعر عمد إلى ذكر المسند إليه على ما جرى عليه عرف الشعراء حينما يكون الكلام فى شأن الحب والمحبوبات فإن الذكر فى مثل تلك الأحوال أنسب وأقرب إلى باب الغزل لأن ذكر أسماء المحبوبات يحقق غرضاً نفسياً للشاعر فهو يكثر من ايراد اسم من يحب ، وكأنه يستطيب هذا ، ويستعذب كثرة إيرادها على لسانه ، ومثل هذا فى الشعر بخاصة فى الغزل منه كثير ومتعارف .

وأما قوله تعالى : " أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " ، فقد ذكر المسند إليه ، وهو اسم الإشارة العائد على هؤلاء الكفرة ، وأعيد أكثر من مرة حيث ذكر ثلاث مرات . فقد ذكر مع كل جملة من هذه الجمل الثلاث الواردة فى هذا النظم الكريم ، وذلك لأن المقام مقام توعد وتهديد بما هو واقع بهؤلاء قطعا ، وهم ملاقوه بكفرهم ، فتفصيل ما فيه توعد لهم وإيراده على هذا النحو مع إسناد كل منه إليهم بما يشير لهم صريحا باسم الإشارة الدالة عليهم ، والمعين لهم والمستحضر لهم كذلك ، يفيد معنى التأكيد وأنهم جديرون بكل من هذه الأحوال على استقلال ، وفى هذا من غير شك مبالغة فى أمر التوعد والإنذار وسوء المصير الحاصل لأمثال هؤلاء .

ويقال فى سياق تعداد الإحسان لمن ينكره : أنا الذى فعلت بك كذا ، أنا الذى أسديت إليك النصح فى شأن كذا ، يقال مثل هذا فى مقام الرد على منكر أو جاحد فتعدد له وجوه إنعامك وأمور إحسانك إليه ، وتنسب كلا منها إلى المسند إليه ، فتذكره وهو عبارة عن ضمير المتكلم هنا وذلك رغبة فى الإشارة بذلك إلى التنصيص على أن كلا من هذا الذى تذكره من وجوه الفضل منسوب إليك وهو متعين الإسناد ، كما أن فيه إشارة إلى استقلال كل أمر حتى كأنه يقوم بالمراد وحده ، ويكفى فى إقرار هذا المنكر فضلك عليه وإحسانك به ، ولربما أدى به هذا الصنيع من التعداد والتكرار إلى معاودة أمر نفسه ورجوعه إلى الصواب والعرفان بالجميل .

كما قد يقال فى مقام إبراز مساوئ المخاطب : أنت الذى فعلت بى كذا ما لا ينبغى أن يكون ، أنت الذى قلت فى شأن كذا ما لا ينبغى أن يقال مثله .

واضح أن الكلام والسياق هنا على خلاف ما كان عليه الكلام فى القول السابق ، فهنا الكلام فى شأن تعداد مساوئ وقبائح المخاطب إلا أن الغرض لا يختلف كالقصد من ذكر المسند إليه ، وهو ضمير المخاطب [أنت] وتكراره الإشارة الى أن هذا المخاطب الذى لا يعترف بأخطائه، هو المُعْني ، وهو الذى كان ووقع منه سائر هذه الأمور والمساوئ المنسوبة إليه ، ففى ذكره إذن تنبيه على أن كل أمر منهما على استقلال جدير بأن يقبح لأجله .

ولعلك قد لاحظت من خلال ما عرضت عليك من شواهد فى هذا الباب اختلاف نوع المسند إليه ، فتارة ورد ذكره بطريق العلمية ، وتارة بطريق الإشارة ، وتارة أخرى بطريق الضمير ، والمهم التعرف على ما وراء إيثار ذكر المسند إليه وطريق التعبير عنه بذلك ، فلا شك أن من وراء إيثار ذكر المسند إليه بالعلمية قصداً إلى تشخيصه بذكر اسمه الخاص الدال عليه ، لأن الحال يستدعى مثل هذا التشخيص المحدد له ، كما أن فى إيراده بطريق الإشارة قصداً الى معنى تعيين المسند إليه وتمييزه واستحضاره فى الذهن ، إما لقصد تحقيره أو لتعظيمه ، وإما لنحو هذا من المعانى التى تلائم حال الكلام ومقتضياته .

تعريف المسند إليه :

قدم هنا التعريف وقدم التنكير فى مباحث المسند لأن الأصل فى المسند إليه التعريف وفى المسند التنكير وذلك لأن القصد من الجملة الخبرية هو الحكم على شئ معلوم لدى المخاطب والشئ المعلوم هو المحكوم عليه (أى المسند إليه) والحكم على المجهول لا يفيد ، أما المحكوم به (أى المسند) فالمقصود فيه هو إثبات مفهومه لشئ فتعريفه حينئذ زائد على المقصود ويحتاج إلى داع لذلك .

وتعريف المسند إليه يكون إما : بالإضمار أو بالعلمية أو بالموصولية أو بالإشارة ، أو بأل أو بالإضافة ولكل نوع من هذه المعارف دواع تقتضيه وإليك التفصيل :

تعريفه بالإضمار : يعرف المسند إليه بالإضمار وأنواعه ثلاثة : تكلم وخطاب وغيبة .

١ - فى مقام التكلم كقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : " أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب " فالمقام يقتضى ذكر المسند إليه " أنا " وذلك لتذكير المسلمين بالرسالة وصدق النبوة ، فيستعيدون قدرتهم على القتال رغم كثرة الكفار .

٢ - ضمير الخطاب : وقد يأتى التعريف بضمير الخطاب ليقصد به مخاطبا واحدا بعينه كقوله تعالى : مخاطبا سيدنا عيسى - عليه السلام - : "أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله "[1] وقد يخاطب الجمع كما فى قوله تعالى : " أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون "[2] ولعل السر فى تعيين الخطاب أن الكلام يكون موجها لحاضر .

وقد يخرج الخطاب عن كون المراد به معينا فيتأتى على سبيل العموم كقوله تعالى " ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم "[3] ، فالخطاب فى الآية الكريمة عام شامل لكل من تتأتى منه الرؤية فالمراد - والله أعلم - الوعظ والتنبيه إلى شدة حال المجرمين وفى ذلك زجر شديد للنفس .

٣ - وقد يأتى التعريف بالضمير الغائب لكون المسند إليه مذكورا أو فى حكم المذكور لقرينة ، فما يذكر فيه القرينة لفظية نحو قوله تعالى : " وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون "[4] فالقرينة ذكر لفظ الجلالة " الله " فى أول القول الكريم ، وقد تكون معنوية كقوله تعالى : " اعدلوا هو أقرب للتقوى "[5] ، ففى قوله تعالى : " اعدلوا " معنى العدل ، أو لدلالة قرينة الحال ، كقوله تعالى : " ولأبويه لكل واحد منهما السدس "[6] أى أبوى : الميت .

تعريف المسند إليه بالعلمية :

يأتى المسند إليه معرفا بلفظة " العلم " لإفادة أحد الأغراض التى يقصدها المتكلم مراعاة لحال الكلام وتمامه .

---

(١) المائدة / ١١٦ (٢) الواقعة : ٥٨، ٥٩ (٣) السجدة / ١٢ .
(٤) النحل / ٥٣ . (٥) المائدة / ٨ . (٦) النساء / ١١ .

والعلم : ما وضع لتعيين الشيء مع جميع مشخصاته ، والعلمية بهذا تعد من أعرف أنواع المعارف ، إذ ليس هناك ما هو أعرف منها من أنواع المعارف الأخرى ، سوى لفظ الجلالة الأعظم والضمير ، فإن العلم يعين ويشخص المتحدث في شأن المسند إليه ، والمراد نسبة الكلام إليه ويحدده ويستحضره في ذهن السامع والمخاطب ، على نحو لا يقوم به مثل التعريف باسم الجنس ، أو ضمير الغيبة أو التعريف بالإضافة أو الإشارة إلى آخره ، فإن مثل هذه المعارف مع كونها تعين المسند إليه ، لكنها على كل حال لا تمنع من مشاركة غيره له لولا القرائن الدالة ، أما العلم فيعين ويميز ويحدد المسند إليه ، مطلقا ، بحيث لا يشاركه غيره فيما أسند اليه أو يتوهم فيه ذلك .

ومن تعريف المسند إليه بالعلمية مجيئه على لفظ الجلالة الأعظم : (الله) وذلك في مثل قوله تعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد) فإن هذا اللفظ الجليل يعين المعبود الحق المختص بأمر الوحدانية على نحو يستحيل مشاركة غيره له سبحانه وتعالى عما يقول الأفاكون ، ومن عجيب هذا اللفظ الجليل وجليله فضلا عن كونه الجامع لسائر صفات الجمال والجلال المستوعبة لأسمائه تعالى الحسنى اختصاص هذا العلم من حيث الإطلاق به تعالى بحيث لم يؤثر أو يعرف أن أحداً حتى من أولئك الكفرة المعاندين قد استعمله علما على أحد من البشر وهذا في ذاته إعجاز ودليل وحده على صدق الوحدانية المنفرد بها الله سبحانه وتعالى .

ومن مقامات استعمال هذا العلم الجليل أنه يرد في القرآن الكريم في الأحوال المنبئة عن سلطانه تعالى واقتداره بما يربي في النفوس بالغ المهابة والخشية ، أو مزيد الطمع والرجاء في ثوابه وفضله ، انظر إلى مثل قوله تعالى : (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فإن أمر بسط الرزق من فيض الربوبية حيث يرزق تعالى بفضله من يشاء من عباده ، يستوي في ذلك من آمن به وأقر بربوبيته ، ومن جحد وأشرك وأنكر ، وأما إنزاله تعالى الرزق بقدر فعلى مقتضى حكمته وتدبيره لشئون الخلق ، والجمع بين هذين الأمرين هو دون ريب من

مقتضيات الألوهية ، ودليل لوحدانيته واقتداره وبسط سلطانه ونفاذ أمره على أى نحو أراد سبحانه وتعالى . وانظر كذلك إلى مثل قوله تعالى : " الله يتوفى الأنفس حين موتها ... الآية) ، فإن هذا الأمر من إيقاع الإماتة بحق من استوفى أجله على وفق ما قدر تعالى ، وإبقاء الحياة فى شأن من لم يقض أجله على وفق ما أراد تعالى و قدر أيضا من مقتضيات الألوهية والوحدانية ، كما هى دليل غلبة وسلطان ، تلحظ مثل هذا أيضا وتدركه فى مثل قوله تعالى : " أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار " ، فإن تهيئة الجنة وإعدادها لهم تفضلا منه تعالى عليهم بما كانوا عليه من العمل على مقتضى الإيمان بالله الواحد القهار ، وأما قوله تعالى : (أعد الله لهم عذابا شديدا ....) فإن إعداد العذاب من قبله تعالى إنما هو جزاء لأمثال هؤلاء الجاحدين لألوهيته تعالى وجحودهم لما أنذروا به من قبل الله تعالى المقتدر على إنجاز ما توعدهم به سبحانه وتعالى على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام ، وأما قوله تعالى : (اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) فقد جمع فى الآية الكريمة بين الأمرين كما ورد فيها لفظ الجلالة مسندا إليه مع كل منهما ، ومثل هذا مما يربى فى النفوس المهابة والإعظام والإجلال وسائر ما يليق بذاته تعالى وسلطانه وقهره .

ولعلك قد أدركت الآن كيف أن ذكر المسند إليه بطريق العلمية قد أفاد معنى التعيين والتمييز خاصة وأن المسند إليه مسبوق فيما سبق بخصوص لفظ الجلالة المختص بذاته تعالى بما يقطع كل وهم ويزيل كل لبس .

ومن الأغراض البلاغية المذكورة لتعريف المسند إليه بالعلمية أيضا ، قصد تحقيره ، وذلك بالتنصيص بذكر اسمه العلم مبالغة فى الأمر حتى لا ينصرف هذا القصد لغيره ، فى مثل قولك : سعد فى دارك ، والسفاح فى دار أخيك ، فإذا كان المقصود بذكر اسم سعد ، الإشارة إلى معنى التعظيم أو التكريم فالمقصود بذكر السفاح الإهانة أو التحقير ، ومرد ذلك إلى المعنى اللغوى لكل من كلمتى (سعد ، والسفاح) وقد يأتى التعظيم من الكنية كما فى قولك : أبو المعالى عندك وأبو لهب عند أخيك .

وقد يأتى المسند إليه معرفا بالعلمية تلذذا بذكر اسمه ، ويكثر هذا على ألسنة الشعراء خاصة فيما يتصل بأمر الحب والغزل أو المديح والثناء انظر إلى قول الشاعر فى أمر محبوبته حيث ذكرها باسمها العلم وكرره :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ۰۰ ليلاى منكن أم ليلى من البشر

فقوله : أم ليلى بعد قوله : ليلاى . قد عرف المسند إليه فيهما بالعلمية لاستلذاذ قائل البيت لاسم ليلاه .

كما قد يأتى المسند إليه معرفا بطريق العلمية لقصد التبرك فى مثل قولنا : الله - سبحانه وتعالى - ربنا ، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - نبينا . كما يلمح الإشارة إلى معنى التوقير ومزيد التكريم فى مثل قوله تعالى فى شأن الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ...) فإن إيراد المسند إليه بطريق العلمية ، وذكره - صلى الله عليه وسلم - باسمه العلم لا يخفى ما يشير إليه من أمثال معانى التكريم والتوقير .

كما قد يرد المسند إليه معرفا بالعلمية أيضا لقصد التسجيل على المخاطب فى مثل قولك : فلان هو الذى فعل كذا ، أو قال كذا ، أو كتب كذا ، وتشخصه باسمه الخاص وذلك أنك تريد من وراء تشخيصه تسجيل هذا الأمر الذى كان ، ويحاول أن ينكره من فعل أو قول أو كتابة .

وعلى ذلك فكما لاحظت تتعدد الأغراض من وراء ذكر المسند إليه معرفا بطريق العلمية ، فكما يكون ذلك لقصد تعيينه يكون لإظهار المهابة والتعظيم والتوقير ، أو الإهانة والتحقير ، أو التبرك أو التسجيل على المخاطب ، ونحو هذا مما يقتضيه مقام الكلام وأغراض المتكلمين والبليغ هو الذى يقع على ما هو أمثل وأنسب بغرضه وأحوال كلامه ، فيتخير الطريق المعبر عما يقصد إليه ، ويطابق به مقتضيات أحوال كلامه .

تعريف المسند اليه باسم الموصول •

وكما كان إيثار طريق تعريف المسند إليه بالعلمية محققا لأغراض بلاغيـــة ، فكذلك ورد المسند إليه معرفا باسم الموصول يفيد معانى ويحقق أغراضـــــا بلاغيـــة •

وقبل أن نشير إلى تلك الأغراض نذكر على طريق الإجمال ما أورده البلاغيون فى شأن ترتيب أنواع المعارف المختلفة من حيث التعريف ، فكما هو معـــروف أن لفظ الجلالة الأعظم : (الله) هو أعرف المعارف جميعا ، وقد سبق إيضـــاح هذا على بعض الشواهد ، ثم يأتى من بعد ذلك فى الرتبة : الضمير ، ثـــم العلم ، ثم الإشارة ، ثم الموصـــول ، ثم المعرف باللام ، ثم المعـــرف بالإضافة ، ورتبة التعريف فيه على حسب رتبة ما أضيف إليه •

ومن دواعى إيثار التعريف بالموصولية عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة ، فإن اسم الموصول دائما يتخصص بمضمون الصلـــة ويكون معرفًا بها ، يقال مثلا : الذى ألقى خطبة الجمعة أمس عالم فاضـــل ، يقول هذا من لا يعرف اسم الخطيب ، ولا وظيفته ، ولا شيئا من صفاتـــه وأحواله ، سوى أنه سمع منه خطبة جمعة نافعة لكل مسلم يعيها ، والمقـــام — كما هو معلـــوم — يقتضى مخاطبة الناس بما يفهمون •

وقد يعرف المسند إليه بالموصولية لزيادة التوضيح والتقرير وقد يراد بـــه تقرير الغرض المسوق له الكلام • من ذلك قوله تعالى : (وراودته التى هو فـــى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال : معاذ الله ، إنه ربـــى أحسن مثواى إنه لا يفلـــح الظالمون) ، فامرأة العزيز : زليخا قـــد راودت يوسف عليه السلام عن نفسه • وأصل المراودة مفاعلة من راد يرود • أى : جـــاء وذهب • وهذا يشير إلى أن هذه المرأة قد خادعت نبى الله تعالى باحتيـــال أنثوى ، وبذلـــت فى ذلك كل جهد وسبيل ، من سبل التحيل رغبةً فى تحقيق رغبتها الجامحة فى مواقعته لها عليه السلام ، وهكذا نرى أن الغرض المسوق لـــه

الكلام : الحديث عن نزاهة هذا النبى الكريم عليه السلام ، وتبرئة ساحته من هذا الأمر السوء ، فالآية الكريمة على ما وردت عليه من التعبير باسم الموصول فى شأن بيان كيف كانت محاولة هذه المرأة من الغواية وإيقاع المعصية أدل وأبلغ من مثل أن يقال فى غير القرآن الكريم ، فراودته امرأة العزيز أو زليخا ، فإن كونه عليه السلام فى بيتها ، يشير إلى مدى قوة تمكنها من مراودته ، وأنها فعلت ذلك أكثر من مرة وقد تكرر ذلك منها بتكرر الزمان والمكان والصد والإباء من قبل يوسف عليه السلام ، وهذا دليل وبرهان بليغ على مدى نزاهته وطهارة محتده وطيب أصله ، إذ هو عليه السلام نبى وابن نبى ، فهو من بيت نبوة ، فإن أباه كما هو معلوم نبى الله يعقوب على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام .

هذا وقد ذكروا أن تعريف المسند إليه هنا بالموصولية لزيادة تقرير المسند إليه لأن كون يوسف عليه السلام فى بيت امرأة العزيز يفيد زيادة فى تقرير المراودة ، وهى المسند ، لأنه يفيد اختلاطه بمن فى البيت وألفته معهم ، ولا مانع من كونه من قبيل تقرير المسند إليه لإمكان وقوع الاشتراك فى زليخا أو امرأة العزيز فيحدث بها لبس ، فلا يتقرر المسند إليه ، ولا يتعين مثله ، كما يتعين فى قوله تعالى : (التى هو فى بيتها) لأنها واحدة مشخصة .

ولعلك تلحظ كيف أن إضافة لفظ البيت إلى الضمير العائد على هذه المرأة يحقق ومعنى المراودة التى كانت منها ، كما أن ذكر تغليق الأبواب ومجىء غلق بطريق التضعيف المؤذن بالمبالغة فى المعنى وجمع الأبواب المشعر بمزيد الاحتياط لذلك الأمر المنكر ، كل هذا يفيد المبالغة فى أمر تلك المراودة ، وأن هذه المرأة قد هيأت لما بغت كل سبيل ووسيلة سواء أكان ذلك فيما يتصل بذاتها وهيئتها المطمعة لغير من عصم أو ما كان يتعلق بالمكان وما يستدعيه الحذر والاحتياط فى مثل هذه الفاحشة خصوصا وأنه من بيوت الملوك التى جرى العرف على أن كل ما يجرى بها يشاع ويذاع ، فهى إذن بحاجة إلى مزيد المبالغة فى محاولة الستر والاخفاء لذلك الفعل الشين حتى لا يفتضح أمرها ولا يهاب من أراد به فعل سوء ، غير أنه مع كل هذا قد

تضح وذاع خبرها وعصم الله نبيه ، وقد استعاذ به سبحانه ، حيث بادر مع كل هذا الذى بذلته من وجوه الإغراء والتطمين والاحتياط للأمر إلى الرد بما ينبئ عن استمساكه بما يستحيل معه الوقوع فى مثل هذه الخطيئة المنكرة : (قال معاذ الله) .

هذا ، وهناك من يذكر أن السر من وراء التعبير عن المسند إليه فى مثل هذه المواقع قصد العدول عن التصريح بذكر أسماء النساء حيث العرف غالب على استهجان ذكرهن بأسمائهن ، وإن كنت لا أظن أن الأمر يخفى عليك فى أن مثل هذا الأمر لا يأخذ على سبيل العموم والإطلاق ، فإذا ما اقتضى الغرض والحال ذكر المتحدث عنه باسمه العلم لأن فى ذكره على هذا النحو تحقيق غرض ، والتنبيه على داع ، كان الذكر أنسب بغض النظر عن كونه ذكر أو أنثى وفى النماذج العالية وعيون الشعر العربى نماذج لهذا ، فالعبرة كما هو مقرر ، ينبغى أن يكون دائما على تنبيه بمقتضيات أحوال الكلام وقرائنه ومقاصد أهل الكلام ، هذا وما يبدو مع معنى استهجان التصريح بذكر المسند إليه والعدول إلى التعبير عنه باسم الموصول ما يقال فى التعبير فى باب نواقض الوضوء : ما خرج من السبيلين ناقض للوضوء ، واضح هنا أن إيثار عدم التصريح بذكر هذا الذى يخرج من السبيلين باسمه والتعبير من ذلك بما الموصولية لما فى مثل هذا من الاستهجان .

وقد يذكر المسند إليه معرفا بالموصولية لإفادة معنى التفخيم والتهويل ، وهذا واضح فى مثل قوله تعالى فى قصة إغراق الطاغية فرعون وملئه ، فى قوله تعالى : (فغشيهم من اليم ما غشيهم) فإن التعبير بما يشير إلى تهويل ذلك الأمر ، وهو إغراق فرعون وقومه بذلك الماء الذى اندفع وتكاثر من فوق رؤوسهم وأحاط بهم على نحو يحال معه أن يكون لهم منه نجاة .

ومن التعبير بهذا الطريق لهذا الغرض فى الشعر قول الشاعر :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها ⁂ وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

يريد الشاعر أن شرب الخمر قد أذهب بشئ غير قليل من عقل الشارب لها

ومع ذلك فإنه لا يزال يتطلب الجهد ليذهب القليل من العقل الذى كان قد بقى بعد شربه الأول . وبغض النظر عن ما يمكن أن يقال فى شأن مثل هذا القول وصاحبه فإن غرضه من قوله ما مضى الدلالة على مدى ما أحدثته الخمر بعد شربه الأول لها حيث أفقدته غالب عقله .

وقوله تعالى : (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) ، وقوله تعالى : (الذين كفروا لهم عذاب شديد) وأمثال هذا مما يدل بأدنى تأمل على أن المسند إليه الذى هو عبارة عن اسم الموصول وصلته قد أنبأ عن ما يفيده المسند من معانى الخسران والعذاب وسوء المصير . وأما مثل قوله تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) ، واضح أن اسم الموصول وصلته فى هذا السياق فى شأن من اختصهم الله تعالى به عليهم السلام من ذلك الأمر العظيم ولا شك أنهم بما فطرهم الله عليه ، ووكلهم به على حال من الطاعة الدائمة والتنزيه التام لله سبحانه وقد دل التعبير بـ (الذين يحملون العرش ومن حوله) على هذا المعنى الذى ورد من بعد ذلك وأسند إليهم تفصيلا فى قوله تعالى : (يسبحون بحمد ربهم ..... الآية) ، وكذلك قوله تعالى : (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) ، حيث دل التعبير على هؤلاء المؤمنين بالموصول وصلته أولاً بكونهم ممن أنابوا إليه تعالى وخصوه بالعبادة وحده ونأوا عن سبيل الكفر والطاغوت على أنهم من أهل الجنة ، ومن عباده تعالى المبشرين ، كما كان التعبير عنهم ثانيا بكونهم ممن يستجيبون لداعى الحق والإيمان ويتبعونه ويعملون على مقتضياته على أنهم من أولئك القبيل الذين هداهم الله ومن ذوى العقول النيرة حيث أبصروا بها طريق الحق والفلاح .

ومما يجرى على هذا الغرض فى الشعر قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنــا ∴ بيتا دعائمه أعز وأكـــرم
بيتــا زرارة محتب بفنائــه ∴ ومجاشع وأبو الفوارس نهشـل

يقصد الفرزدق : أن دعائم بيته (بيت آبائه — أو الكعبة المشرفــة) أقوى من دعائم كل بيت ، والموصول (الذى سمك السماء ... الخ) فيه إيماء إلى نوع الخبر ، لأنه بناه من بنى السماء بلا أعمدة وهو الله تعالى .

وقد يعرف المسند إليه بالموصولية والغرض منه الدلالــة على أمثال معانى التهكم على ما يتضح فيما يذكره القرآن عن أهل الكبر والعناد وما يقولونــه فى شأنه — صلى الله عليه وسلم — وذلك قوله تعالى : (وقالوا يا أيهــا الــذى نزل عليه الذكر إنك لمجنــون) ، حيث أراد هؤلاء المستكبرون التهكم بالـذى نزل عليه الذكـــر — صلى الله عليه وسلم — وبئس غرضهم .

وقد يراد أيضا من التعريف بالموصولية الدلالة على معنى التعطف وإظهــار معانى الشفقة أو قصد الحث على التلطف بحال المخاطب لنحو مكروه ألم بــه مثل أن يقال الذى فقــد ولده وسرق ماله ، وتخلى عنه أكثر الناس مع طيب أصله وحسن خلقــه أتاك وأتاكــم ، يريد المتكلم بإيراد المتحدث فى شأنه باسم الموصول وما أعقبه من صلات حث المخاطبين على الإحسان إليه والترأف بحاله والأخذ بيده ومعاونته على أحداث الزمان وملماتــه .

وهكذا ترى تعدد الأغراض والدواعى التى تكون من وراء التعبير عن المسنـد إليه بطريق الموصولية ، فهى من الكثرة بحيث تجعل قصد الاستقصــاء فيهــا غير ميســـور .

* * *
* *
*

الالتفات :

وحقيقة الالتفات فى اللغة تعود إلى معنى الصرف ، فلفت الإنسان عنقه تغيير حاله بعنه وصرفه ، وهذا المعنى ملحوظ أيضا فى الكلام وتغيير أحواله .
قال ابن الأثير : وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا ، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة ، لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة أخرى وذلك كالانتقال من صيغة التكلم إلى صيغة الغائب ، أو من صيغة الخطاب إلى صيغة الغائب ، أو نحو ذلك كالانتقال عن التعبير بالمضارع إلى التعبير بالماضى ، وهكذا .

المراد بالالتفات عند البلاغيين .

والمشهور عند البلاغيين فى حقيقة الالتفات ومعناه مذهبان : مذهب السكاكى ، والمذهب المنسوب إلى الجمهور ، والذى أورده الخطيب وسار عليه أكثر البلاغيين من أصحاب الشروح ، وهو ما نقصر الحديث عليه فى هذا المقام .

يذكر صاحب الإيضاح تعريفا للالتفات بأنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنها بطريق آخر منها . أى : أن الالتفات يعنى انتقال المتكلم فى معنى من المعانى التى يعبر عنها بإحدى طرق التعبير كأن يعبر أولا بطريق الخطاب ثم ينتقل عنه إلى طريق آخر .

ولا بد كى يعد الكلام الذى فيه انتقال فى الأسلوب من ضرب الالتفات أن يكون هذا الانتقال على خلاف مقتضى الظاهر وما يترقبه المخاطب والسامع وإلا فالكلام جار على الأصل ولا التفات فيه بالمعنى البلاغى ، ومن ثم لا يسأل عن الغرض الداعى لهذا الانتقال ، وذلك بأن يقال أنا الذى أحسنت وأعنت ، وأنت الذى أسأت وانصرفت عند الحاجة ، فأنت ترى التعبير وقد جرى فى الجملة الأولى على طريق تكلم ثم كان الانتقال ثانيا إلى التعبير المبنى على الخطاب ، ومع هذا فليس فى الكلام التفات بلاغى ؛ إذ ليس فى التعبير هنا

مخالفة للظاهر بل إن ظاهر الكلام هنا يقتضى ما ذكر .

القيمة البلاغية فى أسلوب الالتفات .

لا ريب فى أن لكل أسلوب بلاغى مغزاه وغرضه وأثره وقد جد البلاغيون الأوائل فى التماس القيم البلاغية والأغراض التى تكون من وراء إيثار طريق بعينه من طرق التعبير ، وخرجوا بتوجيهات فى ذلك الشأن . غير أنه ينبغى التنبيه إلى أن مثل ما ذكروا إنما يؤخذ على أنه من قبيل الآثار العامة والتوجيهات والتعليلات التى تقال فى شأن بيان قيمة الأسلوب على طريق العموم على معنى يبقى لبذل المحاولة واستخلاص عللا وتوجيهات تخص كل أسلوب وفق سياقه ومقتضيات حاله .

وبعد هذا التنبيه الذى كان لا غنى عنه نقول إن العلامة الزمخشرى كان من أوائل من أبان عن التوجيه البلاغى لأساليب الالتفات فقد أدرك رحمه الله أن إيقاظ النفس وتحركها من أهم أغراض النموذج الأدبى . ولذلك كانت كل خصوصية من خصائص الصياغة تحدث لونا من التأثير والإيقاظ هى خصوصية بلاغية ممتازة يحرص عليها أهل الكلام والبلاغة . ويدرك الزمخشرى أن الالتفات فى الأسلوب كأنه ضربة أوتار النفس يحدث فيها تنبيها وإيقاظا أو هزا وتحريكا كما يقول . وله فى هذا تحليلات جيدة انتهجها المتأخرون بعده .

وأما ابن الأثير فالالتفات عنده من خلاصة البيان . ومن خصائص لغة العرب التى انفردت به على ما يرى وبعد أن يعترض على ما ذكر تعليلا لسر الأسلوب ويرد ذلك إلى كونه عرفا جرى عليه كلام العرب ينقل ما أورده صاحب الكشاف مناقشا له على نحو يبدى معه التحامل .

يقول ابن الأثير : وقال الزمخشرى رحمه الله : إن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن فى الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه . وليس الأمر كما ذكره ، لأن الانتقال

فى الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه ، فإن ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطا للاستماع ، وهذا قدح فى الكلام لا وصف له لو كان حسنا لما مل .

واضح أن إيقاظ السامع وإثارة نشاطه واستمالة سمعه لايعد دليلا على قبح الكلام وعيبه على ما يذكر ابن الأثير، إذ الكلام يراعى فيه أحوال المتكلم ولا شك فى أن طبع البشر التقلب والتغيير والمتكلم البليغ هو الذى يورد كلامه المورد الذى يستجيب لفطر النفوس فيما طبعها على ما تستجيب إليه فتحسن الإصغاء إليه والتنبه إلى ما فيه . انظر إلى مثل قوله تعالى فى فاتحة أم الكتاب : (الحمد لله رب العالمين) ، وقد بنى الكلام على طريق الغيبة ، وحيث تنبه السامع واستحضر فكره وقلبه ، قال تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) .

ثم يذكر ابن الأثير أن الانتقال من أسلوب إلى آخر لا يكون إلا لفائدة وغرض اقتضى هذا ، غير أن هذه الفائدة لا تقع تحت حد، كما لا يتيسر الإشارة إليها على جهة التعيين ، إذ ليس لها ضابط .

والحق أن الزمخشرى قد نبه على مثل هذا حيث لم يكتف بما أورده توجيها يعم هذا الضرب بل كثيرا ما كان ينبه على ما وراء صور هذا من التعبير من أسرار وذلك فى أثناء تحليله لصوره .

صور الالتفات .

وصور هذا الضرب على مقتضى تعريف الخطيب ستة ، وذلك أن صور الكلام ثلاثة الخطاب والتكلم والغيبة ، ويكون الانتقال عن أحد هذه الطرق الثلاثة إلى أحد الطريقين الآخرين .

من التكلم الى الغيبـــــة .

وذلك كقوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر) ، حيـــث انتقل النظم الكريم من التعبير بطريق التكلم فى الآية الكريمة الأولى ثم عدل إلـى طريق الغيبة بذكر وصف الربوبيـــة فى الآية الكريمة الثانية خلافا بظاهر الحـال حيث لم يقل : (فصل لنا) والغرض من هذا العدول التحريض على فعل الصـلاة لحق الربوبية على ما يذكر صاحب البرهان كما أن وصف الربوبية بمثل هذا المقام أنسب

ومن هذا الضرب أيضا قوله تعالى : (فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمرا مـــن عندنا إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك ، إنه هو السميع العليم) ، فقد عدل عـن أسلوب التكلم فى قوله تعالى (أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين) إلى طريق الغيبـة فى قوله سبحانه (رحمة من ربك) ، ولم يقل (رحمة منا) على ما يقتضيه ظاهـــر النسق ، وذلك أن وصف الربوبية بمعنى الرحمة المذكورة أنسب .

ومما يجرى على هذا الطريق كذلك قوله سبحانه وتعالى : (قل يا أيها النـاس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله إلا هو يحـــيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمـى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعـــوه لعلكم تهتـــدون) ، حيث عدل إلى طريق الغيبة فى قوله تعالى : (فآمنـــوا بالله ورسوله النبى الأمى) ، وأجرى على ذلك الكلام إذ كان أولا على طريـــق التكلم فى قوله تعالى : (إنى رسول الله إليكم) ، ولم يقل (فآمنوا بالله وبى) ، على ظاهر النسق قبله ، ولهذا العدول فائدتان كما يذكر صاحب البرهان .

أحداهما : قصد دفع التهمة عن نفسه الشريفة — صلى الله عليه وسلم — بالعصبية لها ، والثانى تنبيههم على استحقاق اتباعه — صلى الله عليه وسلم — بمـــا اتصف به من الصفات المذكورة ، من النبوة والأمية التى هى أكبر دليل علـــى صدقه ، وأنه لا يستحق الاتباع لذاته ، بل لهذه الخصائص .

++++++++++++

من الغيبة الى التكلم .

وقد يكون العدول فى الكلام عن طريق الغيبة إلى طريق التكلم وعلى هذا الضرب يجرى الالتفات فى قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) . حيث جرى الكلام أولا . على أسلوب الغيبة . ثم عدل إلى التكلم فى قوله تعالى : (الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) ولعل الحكمة البادية لهذا العدول الدلالة بما عبر به بالتكلم هنا على معنى التعظيم والتفخيم . إذ تيسير الله تعالى لرسوله — صلى الله عليه وسلم — أمر رؤية هذه الآيات فى هذه الليلة المباركة فيه إعجاز وخرق للنواميس التى أجرى الله عليها شئون كونه وخرقها وحصول المراد على خلاف معهودها يستدعى معنى التعظيم والتفخيم لشأنه تعالى الفاعل لما يريد والمقتدر على إنجاز ما يشاء . وقد أفادت إضافة (نا) الدالة على المتكلمين هذا المعنى إذ قد جرى عرف الاستعمال عند أهل اللسان والكلام أنها حين ترد فى كلام والمتكلم فيه واحد كان القصد إلى معنى التعظيم ونحوه حتى لكأن المفرد قد صير نفسه جمعا اعتدادا بأمر نفسه وإيهاما لعظم مكنة الأمر لو نسب إليه مفردا فإن من شأن الأمور الكبار أنها تفتقر فى القيام بها إلى غير واحد فإن المتكلم بهذا ينزل نفسه منزلة هذا العدد الكثير . وإذا كان هذا جاريا فى متعارف الناس ومعتاد كلامهم فالأمر بالنسبة إليه تعالى مختلف حيث إنه تعالى منجز لما يشاء وحده فلا تمهل ولا افتقار . لذا كان معنى التعظيم من وراء مثل هذا الإسناد حق وأظهر فى جانبه سبحانه وتعالى .

ومما يدخل فى هذا الضرب من العدول كذلك قوله سبحانه وتعالى : (فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح) . عدل النظم الحكيم عن الغيبة فى (فقضاهن) و (وأوحى) إلى التكلم فى قوله تعالى (وزينا) . وقد ذكر أن هذا لأجل الاهتمام . والإخبار عن نفسه تعالى بأنه سبحانه جعل الكواكب زينة السماء الدنيا . وحفظا تكذيبا لمن أنكر ذلك . كما ذكروا فى التعليل للعدول على هذا النحو هنا أيضا أنه

لما كانت الأفعال المذكورة فى هذه الآية الكريمة نوعين أحدهما : وجه الإخبار عنه بوقوعه فى الأيام المذكورة ، وهو خلق الأرض فى يومين ، وجعل الرواسى من فوقها والقاء البركة فيها ، وتقدير الأقوات فى تتمة أربعة أيام ، ثم الإخبار بأنه استوى إلى السماء ، وأنه أتمها وأكملها سبعا فى يومين ، فأتى فى هذا النوع بضمير الغائب ، عطفا على أول الكلام فى قوله (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى) ، إلى قوله : (فقضاهن سبع سموات ٠٠٠٠) الآية ٠

والثانى : قصد به الإخبار مطلقا بغير قصد مدة خلقه ، وهو تزيين السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلها حفظا ، فإنه لم يقصد بيان مدة ذلك بخلاف ما قبله ، فإن نوع الأول يتضمن ايجادا لهذه المخلوقات العظيمة فى هذه المدة اليسيرة ، وذلك من أعظم آثار قدرته ، وأما تزيين السماء الدنيا بمصابيح فليس المقصود به الإخبار عن مدة خلق النجوم ، فالتفت من الغيبة إلى التكلم ، فقال : (زينا) ٠

وأما قوله عز وجل : (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه) ففيه عدول أيضا من الغيبة حيث عبر أولا بلفظ الجلالة ، ثم انتقل إلى طريق التكلم أو به (فسقناه) ، والتوجيه لذلك أنه لما كان سوق السحاب إلى البلد إحياء للأرض بعد موتها بالمطر ، دالا على القدرة الباهرة والآية العظيمة التى لا يقدر عليها غيره ، عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم لأنه أدخل فى الاختصاص ، وأدل عليه وأفخم ٠

من الغيبة الى الخطاب ٠

وهذا الضرب جار فى النظم الحكيم كثيرا ، وتحته أغراض ودواع ، عديدة ومختلفة تبعا لاختلاف سياق الكلام وقرائن الأحوال ، فقد يكون فى العدول إلى الخطاب قصد تحصيل معنى الخضوع التام والإقبال الخالص على المخاطب ولا أكاد أجد شاهدا يفى بحق هذا الغرض على أتم وجه مما ورد عليه النظم

الكريم فى أم الكتاب ، وأحسن به من مفتتح ومبدأ لهذا الحديث يقول سبحانه وتعالى : (الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) ، فهذا كله جار على طريق الغيبة ، ثم عدل عنه إلى الخطاب بقوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين إلى قوله أنعمت عليهم) .

وعلينا أن ننتظر أولا كيف كان الحديث على أول الطريقين ممهدا للطريق الذى عدل إليه ، ثم ننظر بعد ذلك كيف وقع كل من الطريقين موقعه الأنسب من حيث الغرض المراد فى كل منهما .

فقد جرى الأسلوب على طريق الغيبة أولا ، من حيث كانت تلك المعانى المرادة من حمد الله تعالى والثناء عليه وذكر ربوبيته للعالمين ورحمته الغامرة وملكه ليوم الدين تحث النفوس على الإقبال نحو الحق متجهة إليه بالخطاب معلنة وحدانيته بالعبادة والاستعانة ، وهكذا يكون تصريف الكلام على هذا النحو مشيرا إلى تصاعد الإحساس بالجلال حتى تتخلص النفس فى مراحل عروجها من شئونها الأرضية فتشافه الحق وتعلن هناك غاية العبودية والاستسلام ، وحيث كان العباد الحامدون قاصدين وصفه تعالى بخصائص الربوبية وصفات الألوهية ، فقد سلكوا أسلوب الغيبة ليكون أدل على صدقهم وإخلاصهم فى ذلك مما إذا خاطبوه تعالى به إذ المخاطب بالمدح قد يراقب غيرالحق ويخالف لسانه قلبه بخلاف المادح فى الغيبة ، ثم انصرفوا عن طريق الإخبار إلى الخطاب لأنه أدل على الخضوع والضراعة وشدة الرغبة وذلك أن أحسن السؤال ما وقع على سبيل المشافهة ألا ترى أن الأنبياء عليهم السلام لما سألوا ربهم — تبارك وتعالى — شافهوه بالسؤال فقالوا : (ربنا ظلمنا أنفسنا) ، (ربنا اغفر لنا) ، (رب هب لى) ، (رب أرنى) والسبب فيه أن الرد من الكريم على سبيل المشافهة والمخاطبة بعيد ، فحيث كان القصد أولا إلى الثناء ، كان طريق الغيبة إذ الثناء فى الغيبة أولى وحيث كان الغرض بعد ذلك الدعاء كان العدول إلى الخطاب إذ الدعاء فى الحضور أنسب .

ويدخل في هذا الضرب من ضروب الالتفات قوله تعالى : (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا • إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) حيث التفت النظم الحكيم عن طريق الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى (كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) والغرض من العدول إلى الخطاب هنا قصد ازدياد سرور أهل الإيمان بما أعد الله تعالى لهم من مظاهر النعيم في الجنة تفضلا منه سبحانه عليهم ، ومما يوضح ذلك ما تراعي حين يقال هذا بحملك الردع فيزداد غمة ، وللمحسن: هذا بطاعتك فيزداد سروره . ويكون ذلك تهنئة له ، فحيث كان من وراء هذا النظم معنى التبشير كان الخطاب لكونه به أنسب خاصة إذا كان المبشر من لا يتخلف عنده ما وعد لكونه وفق علمه وحكمته وفي طوق قدرته عز وقدر •

وعلى ذلك فالعدول إلى الخطاب أوضح وله في البلاغة موقع حيث إن في الإقبال من الله تعالى على عباده والحديث إليهم وهم حضور ما تهنئ به النفوس وتأنس به القلوب وتهفو شوقا لتحصيل الوعد وتجد في العمل بلوازم ذلك ما يوصل إليه •

وقد يطرح بلفظ التبشير الذي عد غرضا من أغراض العدول عن الغيبة إلى الخطاب وذلك كما في قوله سبحانه وتعالى : (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) بطريق الخطاب بعد أن سبق التعبير عن أحوال هؤلاء المؤمنين المبشرين بطريق الغيبة في قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ...) •

العدول عن الخطاب إلى الغيبة •

وكما كان من وراء العدول عن الغيبة إلى الخطاب أغراض ودواع ، فكذا الحال مع العدول من الخطاب إلى الغيبة فالحديث بطريق الغيبة بعد الخطاب إفادة لمعنى الإعراض والتولي فكأن المخاطب إن لم يقبل على مطلوب المخاطب له وأعرض استوجب بذلك الإعراض عنه •

وإذا كان هذا الأمر واضحا وقائما فى مخاطبات البشر فما البال والمخاطِب هو الله عز وجل حيث يقبل على خلقه بالمخاطبة والمشافهة حتى إذا ما بدا منهم ما ينبئ عن عدم الاستجابة والإعراض تولى الله تعالى عنهم وأعرض عن مخاطبتهم فكأنهم قد صاروا غير أهل لأن ينالهم شرف خطابه ، فالتعبير بالغيبة إذن معه إيذان باقتضاء ذكر قبائحهم وتعديد جناياتهم بالإعراض عنهم حيث تحكى أحوالهم لغيرهم تعجيبا منهم وإسقاطا عن الحديث فى شأنهم عن رتبة المخاطبة فيصيرون بذلك كالغُيَّب حتى ولو كانوا حضورا .

ومما يجرى على هذا قوله عز وجل : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) ، فقد سلك النظم الحكيم طريق الخطاب أولا (إن كنتم تحبون .... فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) إلى أن كان الحديث فى أمر التولى فكان قوله تعالى : (فإن تولوا) عدولا إلى طريق الغيبة تحقيقا للغرض المشار إليه ، لكن قد يقال لِمَ لا يكون فعل التولى هنا على صيغة المضارع على حذف إحدى التاءين والأصل تتولوا ، وحينئذ يكون خطابا والكلام جار على النسق ولا عدول ، قلت : سلمنا بذلك التوجيه الذى أورده بعض المفسرين احتمالا لكن ليس فى هذا الموضع بشهادة أنه لم ترد قراءة به كما كان عليه الحال فى مواقع أخرى ، ثم إن دعوى الحذف للتخفيف هنا يسقطها أو يهون من شأنها ثبوت التاء فى مواقع بما يسأل معه عن إيثار عدم الحذف فيما لم يحذف منه ما دام من ورائه غرض .

ثم إن كان الخطاب مع غير المؤمنين على ما تفيده أكثر من رواية فى أسباب النزول فالأمر ظاهر فقد ختم هذا النظم الكريم بذكر عدم محبة الكافرين ، ردا للعجز على الصدر المتقدم فى قوله تعالى : (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ..) ليكون نفى المحبة عن جميع الكافرين نفيا لها عن هؤلاء الكافرين المعنيين ممن باشرهم الخطاب أصلا ، وهنا ملحظ حيث لم يأت النظم الكريم بضمير هؤلاء ، وإنما عدل عنه إلى وصف الكفر إشعارا بأن التولى عن الطاعة كفر ، وبأن محبته عز وجل مخصوصة بالمؤمنين لأن نفيها عن هؤلاء الكفار المستلزم

لنفيها عن سائرهم لاشتراك الموجب يقتضى الحصر فى عدهم . وأما مع القول بخصوص الخطاب بالمؤمنين فإن الأمر يحتاج إلى بسط لخفاء هذا التوجيه على نحو قد لا يساعده هذا المقام . ومما يجرى على هذا الضرب كذلك قوله تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون) حيث نرى السياق الكريم يعدل إلى طريق الغيبة (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون) وكان مقتضى الظاهر تؤمنون وتكفرون على نسق ما قبله . ومن وراء هذا الانتقال إيذان باستيجاب حالهم الإعراض عنهم وتصيير الخطاب إلى غيرهم تعجيبا لهم مما فعلوه.

من التكلم إلى الخطاب

ويمكن أن يقال فى وجه حسن هذا الضرب على جهة العموم لما فيه من حث السامع وبعثه على الاستماع . حيث أقبل المتكلم عليه وأنه " أعطاه فضل عنايته وتخصيصه بالمواجهة ويبقى بعد ذلك مع كل موقع داعيه والغرض منه . وفق خصوص سياقه .

وقد أورد السيوطى قوله تعالى شاهدا لهذا الضرب دون تعقيب أو إيضاح (وأمرنا لنسلم لرب العالمين وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى إليه تحشرون) فظاهر السياق والله أعلم (أمرنا لنسلم) وأن نقيم إلا أنه تعالى عدل إلى ما ذكر إيذانا بأن (الكافر ما دام يبقى على كفره كان كالمخاطب الأجنبى فلا جرم يخاطب بخطاب الغائبين . فيقال له (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وإذا أسلم وآمن ودخل فى الإيمان صار كالقريب الحاضر فلا جرم يخاطب بخطاب الحاضرين . ويقال له (وأن أقيموا الصلاة واتقوه . وهو الذى إليه تحشرون) فالمقصود (من ذكر هذين النوعين من الخطاب التنبيه على الفرق بين حالتى الكفر والإيمان وتقريره أن الكافر بعيد غائباً والمؤمن قريباً حاضراً) والله أعلم.

ومن الالتفات من التكلم إلى الخطاب أيضا قوله تعالى : (قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) .

من الخطاب إلى التكلم .

من الميسور أن نلحظ أن أكثر كتب البلاغة لم تورد لهذا الضرب شواهد من الكتاب المعجز وقد جزم السيوطي بأنه لم يقع في النظم الكريم . ومن ثم اعترض على ما استشهد به صاحب البرهان بقوله تعالى : (فاقض ما أنت قاض) ثم قال سبحانه بعده (إنا آمنا بربنا) لأن شرط الالتفات أن يكون المراد به واحدا . وواضح أن قوله سبحانه (فاقض ما أنت قاض) محكي من كلام من آمن من سحرة فرعون وقد خروا سجدا إثر أن برز لهم معجزة موسى عليه السلام جوابا عن تهديد الطاغية لهم بقوله : " لأقطعن .... الخ " . وأما قوله تعالى : (إنا آمنا) فهو إخبار بما كان منهم من إيمان والتعبير لهم وإظهار عدم الاكتراث بما قد توعدوا به فلا عدول إذن والكلام جار على ظاهر النسق . غير أن داعي الإنصاف يقتضي التنبيه إلى أن الزركشي نفسه قد ذكر أن اعتبار الالتفات إنما يتمشى على قول من لم يشترط أن يكون المراد بالالتفات واحدا فأما من اشترط فلا يحسن أن يمثل به ويمكن أن يمثل بقوله تعالى : (قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) على أنه سبحانه نزل نفسه منزلة المخاطب . فالضمير في كل للمخاطب . وفي رسلنا للمتكلم والحق أن مذهب العدول بعيد في كلا المثالين ذلك أن شرط اتحاد المرجع يفوت عدم اعتبار . حقيقة العدول والغرض منه . كما أن العدول في ثاني المثالين على ما وجه به غير عار من نوع تكلف نعم إن في هذا النظم الكريم عدولا أو أكثر مع مراعاة مروي القراءات من المتواتر والشواذ . حيث قرأ يمكرون على الغيبة على خلاف قراءة الجمهور تمكرون على الخطاب لكن على كل حال ليس منه ما يندرج تحت هذا الضرب .

ومن مشتهر ما يذكرونه شاهدا لهذا الضرب من الالتفات شعرا قول علقمة ابن عبدة :

طحا بك قلب في الحسان طروب .·. بعيد الشباب عصر حان مشيب
يكلفني ليلى وقد شط وليها .·. وعادت عواد بيننا وخطوب

قوله — طحا — بمعنى ذهب وأتلف ، طروب بمعنى أن له طربا ونشاطا في طلبهن ، قوله — يكلفني ضميره يعود إلى القلب ، وروى — تكلفني — فيجوز أن يكون فاعله القلب على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، ويجوز أن يكون فاعله — ليلى — بمعنى أنها تكلفه شدائد فراقها ، قوله: شط وليها — بمعنى بعد قربها ، قوله : عادت عواد : بمعنى رجعت عوائق كانت تحول بيننا إلى ما كانت عليه ، ويجوز أن يكون — عادت — من المعاداة ، والشاهد في قوله — يكلفني — لأن الأصل يكلفك على مقتضى السياق .

++++++++++++++++

أساليب الإلهاب والتهييج

ولعل الحديث عن ذلك الخطاب في حق آل بيت النبوة يهيء القول عن تلك المخاطبات التي جرت في كتاب الله العزيز كثيرا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره من الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام وكذا في حق أتباعهم مما لا يتيسر الحمل معها على ظاهر الحال إما لاستحالة وقوع مضمونها وإما لتحقق مطلوباتها مما استتبع الحمل على فهم يليق وتصور يناسب حال المخاطبين ومن هنا كان ما يعرف بخطاب التهييج أو الإلهاب .

والإلهاب مأخوذ من قولهم ألهب النار إذا أسعرها حتى التهبت وطال لهبها وأما التهييج فمن قولهم هاجت الحرب إذا ثارت.هذا معناهما في اللغة . (١)

وأما في مصطلح علماء البلاغة على ما أورد صاحب الطراز فهما مقولان في كل كلام دال على الحث على الفعل ممن لا يتصور منه تركه وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممن هذه حاله على جهة الإلهاب والتهييج له في الفعل أو الكف لا غير . ثم يعقب العلوى بقوله " فهذان نوعان من الكلام يردان في الكلام الفصيح والخطب البليغة ولولا موقعهما في البلاغة أحسن موقع لما وردا في كتاب الله تعالى الذى أعجز الثقلين الإتيان بمثله أو بأقصر سورة من سوره " (٢)

وحتى نتبين شيئا مما أشار إليه العلوى حول بلاغة هذا الأسلوب فلننظر إلى قوله تعالى " وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين . ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله إلٰها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون " (٣)

فهذه المخاطبات بتلك النواهي وكذا الأمر بينها مما هو جار على هذا الباب

---

(١) ينظر ترتيب القاموس ٤ / ٥٥٠ (٢) الطراز ٣ / ١٦٥، ١٦٦، ٣٦٣

(٣) سورة القصص الآيات ٨٦ : ٨٨

لزيادة الثبات والطمأنينة (١) وقطع أطماع المشركين وإظهار أن المنهى عنه في القبح والشناعة بحيث ينهى عنه من لا يتصور وقوعه منه أصلا . وعلى ذلك فهذا الخطاب فيه بليغ تنبيه للمخاطب وتوقيف له على أمر عظيم فلعله بذلك ينزجر عما يورث المنهى عنه لأنه صلى الله عليه وسلم مع عظيم قدره إذا خوطب بمثل ذلك فما الظن بغيره (٢)

ومع ما لهذه المخاطبات من موقع فى البلاغة على نحو يظهر أكثر مع مراعاة خصوص السياق ، فقد بدا فريق من أهل العلم والتفسير على تخوف وحذر مع أمثال هذه المخاطبات آثروا معه سلك طريق آخر توسموا فيه الأمن والبعد عن كل محظور على حين بدا آخرون أكثر جرأة فلم يروا بأسا من الأخذ على الظاهر والحقيقة وبين هؤلاء وأولئك أكثر من مذهب وحمل يختلف الحكم له أو عليه تبعا لاختلاف خصوص سياقه حيث يبقى الأخذ بها على وجه التعميم غير ميسور إلا على وجه من التكلف لا تدعو إليه ضرورة .

وإذا شئنا إيضاح هذا الأمر فلننظر فيما قالوا توجيها للمخاطبات الواردة في أحد شواهد هذا الباب المشهورة وهو قوله سبحانه وتعالى " فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين "(٣) فمن العلماء من أجرى الخطاب على حقيقته أى قل يا محمد إن كنت فى شك من القرآن فاسأل من أسلم من اليهود إنهم أعلم به من إجل أنهم أصحاب كتب (٤)

ولا يخفى بعد هذا التوجيه وحتى مع فرض قبول مثله احتمالا فى خصوص هذا الموقع فإن هناك من المخاطبات مما لا يتيسر الحمل معها عليه قطعا .

وهناك من ذكر أن الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أمته (٥) على حين ذكر صاحب البرهان أن هذا ونحوه من باب خطاب العام من غير قصد شخص معين (٦) .

---

(١) الكشاف ١/٤٣٣
(٢) روح المعانى ٣/١٨٧
(٣) سورة يونس الآيتان ٩٤، ٩٥
(٤) البرهان فى علوم القرآن ٢/٢٤٦
(٥) روح المعانى ١١/١٩٠
(٦) البرهان فى علوم القرآن ٢/٢٤٣

أى إن كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا على لسان نبينا إليك فاسأل . وهذا التوجيه وإن كان سائغا وغير بعيد فى ذاته لكن يعوزه أمر الاطراد فإن الأخذ به هنا غير قريب لأن قوله عز وجل " مما أنزلنا إليك " مما يأبى ذلك إلا بتعسف بما لا تدعو إليه ضرورة [1] وأبعد من ذلك وأدخل فى باب التكلف ما نقله الفخر عن الزجاج من كون " إنْ " هنا نافية وقوله عز وجل " فاسأل " جواب شرط مقدر أى ما كنت فى شك مما أنزلنا إليك فإن أردت أن تزداد يقينا فاسأل [2]

أرأيت كيف أن أكثر ما قيل على شىء غير قليل من التكلف . ثم أرأيت كيف كان الحال على هذا النحو من التردد أو قل الحيرة فى تصريف هذا الخطاب مع أن الأمر أهون من كل هذا العنت بكثير . وما كان ينبغى أن يطلق الحكم على مثل هذا إذ أن التعميم دون ريب إغفال أو إهمال لأصل مهم وهو أمر خصوص السياق وأحوال النظم وقرائن الأحوال وتلك أمور على غير وفاق وإطلاق الأحكام مهما كان حسن المقصود ونبل الغاية والأجدى والأمثل متابعة أمثال هذه المخاطبات فى سياقها وبذل الجهد فى استشراف المراد وسيكشف لنا هذا دون ريب أن طائفة من هذه المخاطبات يحسن بل قد يتعين معها على وجه ما على حين تبدو طائفة أخرى بحيث يلزم أو يترجح حملها على وجه آخر كما قد يقتضى الحال أو يرشح أن يصرف الخطاب على غير ما كان عليه صاحبه وإن اتحدا لفظا أو تشابها ومرد هذا التعيين واللزوم والاقتصاد أو الاستحسان والترشيح والترجيح كما سبق إلى مراعاة ما بين السياقات من اختلاف وتفاوت فلئن تيسر أن يقال فى مثل قوله تعالى : " ياأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ... " [3] إن الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد المؤمنون لأنه عليه الصلاة والسلام كان تقيا وحاشاه من طاعة الكافرين والمنافقين ودليل هذا التوجيه ما ورد عليه الخطاب المختتم به هذا النظم حيث كان على صيغة العموم [4] لكن ذلك التوجيه لا يتيسر فى كل حال نظير ما فى قوله عز وجل " ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين " [5]

(١) تفسير التحرير والتنوير ١١/٢٨٤ (٢) التفسير الكبير ١٧/١٦٩
(٣) سورة الأحزاب الآية ١ (٤) البرهان ٢/٢٤٦
(٥) سورة الأنعام الآية ٣٥

حيث إن ظاهر السياق أن الخطاب له صلى الله عليه وسلم والقول بصرفه إلى الأمة (ضعيف ولا يقتضيه اللفظ) (١)

كما قد يتيسر أن يقبل الحمل على معنى التعريض نظير ما فى قوله تعالى " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين " (٢) فإن الظاهر فى الخطاب الكريم هنا أنه للنبى صلى الله عليه وسلم وإن كان فى الحقيقة والله أعلم على قصد التعريض بغيره والمعرض بهم هنا النصارى الممترون فى الإلهية بسبب تحقق أن لا أب لعيسى وما كان قد نشأ بعقيدتهم من أوهام أجاب عنها الذكر الحكيم بما ينفى كل شبهة فيما سبق الخطاب الكريم .

وعلى ذلك فالخطاب جار على طريق إياك أعنى واسمعى ياجارة وهذا الوجه فى الخطاب حسن المأخذ وله فى البلاغة موقع فى سياقه وإن كان لا يتيسر الأخذ به كذلك على إطلاق وفى كل حال فلننظر إلى ما فى قوله تعالى : " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير " (٣)
نجد أن الخطاب بجملة الشرط ينصرف إليه صلى الله عليه وسلم كما كان هو المخاطب بالجملة المنفية قبله وكما كان هو أيضا المأمور بأن يتصدى بالجواب بقوله عز وجل " قل إن هدى الله هو الهدى "
فإن قلت كيف يتصور جريان مثل هذا الخطاب فى حقه عليه الصلاة والسلام وهو المعصوم من أمر اتباع هوى هؤلاء بل ومن كل هوى قلت : الأمر فى مثل هذا مبنى على الفرض والتقدير ومن ورائه أغراض وغايات جليلة فبعد أن قدم سبحانه وتعالى مايفيد التأنيس والتسلية أورد هذا الكلام مورد التأييس من إيمان هؤلاء وهذا من كرمه تعالى بنبيه عليه الصلاة والسلام لئلا يظل قلبه الشريف معلقا بإيمان أمثال هؤلاء والتطلع الى اتباعهم ولقصد المبالغة فى أمر هذا التأييس كان النفى بلن التى هى أوكد فى باب النفى فى المستقبل وتأبيده كما يؤخذ هذا المعنى من حتى

(١) البرهان ٢/٢٤٤
(٢) سورة آل عمران الآيتان ٥٩ ، ٦٠
(٣) سورة البقرة الآية ١٢٠

حيث أفاد التعليق رضاءهم بما لا يكون أصلا [1] على أن المفسرين قد وجهوا الخطاب (قل) هنا على أنه أمر له صلى الله عليه وسلم على طريقة الجواب لمقالتهم .

وقد بدا لي ما ظننته أول الأمر خاطرا وقع لي خاصة حتى وقفت عليه تفسيرا [2] قيل به وهو أن يكون الخطاب له صلى الله عليه وسلم لا لقصد الجواب عن هؤلاء أصلا وإنما على معنى دم على ما أنت عليه من تذكر واعتقاد والعمل بمقتضى مقول القول المخاطب به فليس حبك إيمان أمثال هؤلاء سبيلك إلى حصول ذلك ما لم يقدره الله تعالى وبهذا يلتقى هذا الخطاب مع سياق الخطاب بعده والغرض منه وعلى كل حال فقد علم مما سبق أنه لا يلزم القول بصرف الخطاب لغيره صلى الله عليه وسلم حيث لا مستند لذلك من السياق وأن الأنسب الحمل على باب الإلهاب والتهييج، والتقييد بالشرط بما فيه للدلالة على أن متابعة أهوائهم محال لأنه خلاف ما علم صحته فلو فرض وقوعه كما يفرض المحال لم يكن له عليه الصلاة والسلام ولي ولا نصير يدفع عنه العذاب وفي ذلك من المبالغة في إقناط هؤلاء عن متابعته صلى الله عليه وسلم وكذا إقناطه عليه الصلاة والسلام من متابعتهم له .

وعلى ذلك التخريج فلا محظور يرتكب يلجأنا إلى أمثال تلك التخريجات البعيدة أو الضعيفة . فالأمر والنهي في أمثال تلك المخاطبات مراد بها الحث على زيادة التمسك والتصلب والثبات وفائدة هذه الطريقة وفضلها على قولنا استمر في ذلك المراد الخطاب بها أو ازدد منه إلى نحو ذلك هي إنها تفيد مع ذلك معنى الإلهاب والتهييج وتثير الشعور والوجدان فتكون النفس أحسن تلقيا وأكثر تمسكا بما هو كائن ولذلك نلحظ هذا الضرب من ضروب القول واردا في المعاني المهمة التي هي أصول في الدين على نحو ما مضى وعلى ما سيجيء، ثم إن من وراء تلك الأساليب غاية عظمى، إذ هي مظاهر الربوبية القاهرة تتجلى في خطاب البشرية المربوبة في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من الرسل السابقين وهم صفوة الخلق وأقربهم إليه تعالى .

---

(١) التحرير والتنوير الكتاب الثاني ٦٩٣ ، إرشاد العقل السليم ١/ ١٥٢

(٢) روح المعاني ١/ ٣٧٢

ولهذا الضرب من الخطاب صور من حيث المخاطب الوارد في حقه كما أن هناك ضروبا عديدة من فنون القول اتخذت وسائط للتعبير عنه وإبرازه

* مع الأنبياء عليهم السلام :

فقد وردت هذه المخاطبات في حق كثير من أنبياء الله تعالى ورسله عليهم السلام حيث خوطب داود بقوله تعالى : " ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله "[1] كما خوطب به موسى عليه السلام بقوله سبحانه " فلا يصدنك عنها من لم يؤمن بها واتبع هواه فتردى " [2] وكذا ورد مخاطبته مع أخيه هارون عليهما السلام في قوله عز وجل : " قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون"[3] وإذ قد كان موسى وهارون عليهما السلام مستقيمين كان أمرهما بالاستقامة مستعملا في الأمر للدوام عليها على هذا الطريق وأعقب حثهما على الاستقامة بالنهي عن اتباع طريق الذين لا يعلمون وإن كان ذلك مشمولا في الأمر قبله على طريق عطف الخاص على العام تنبيها على توخي السلامة من العدول على طريق الحق اهتماما بالتحذير من الفساد ومن قبل خوطب نوح عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى " قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسئلن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين " [4]

وقد حاول بعض أهل العلم الموازنة بين هذا الخطاب الوارد في حق نوح عليه السلام على هذا النحو وبين ما ورد في حقه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى " فلا تكونن من الجاهلين " فقيل في رد أمر التباين أنه " وُقّر نوح عليه السلام لسنه وشيبه " [5] ولا أظن خفاء هذا التوجيه يخفى لبنائه على أمر لا يسوغ قبوله ولعل الوجه في ذلك والله أعلم أنه جاء الحمل على النبي صلى الله عليه وسلم تنبيها على مزيد قربه وعظيم مكانته كما يحمل العاتب على قريبه أكثر من حمله

(١) سورة ص الآية ٢٦ — (٢) سورة طه الآية ١٦
(٣) سورة يونس الآية ٨٩ — (٤) سورة هود الآية ٤٦
(٥) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٤٤

على الأجانب " (١)

بل قد جاء هذا الخطاب بما يعم سائر أنبيائه تعالى ورسله عليهم السلام وذلك في قوله تعالى : " ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ...." (٢) على أشهر ما فسر به الخطاب (٣) وأظهر ما قيل، ويؤيده ما ورد في هذا المعنى على سبيل الحكاية في قوله تعالى " ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون " (٤) حيث كان هذا النظم الجليل واردا في سياق الحديث عن رسل الله وأنبيائه عليهم السلام .

مع مخاطبة الرسل وأتباعهم أقوامهم :

وقد يرد هذا الخطاب في سياق مخاطبة الرسل أقوامهم أو من أنعم الله عليهم بالإيمان والتثبت لمن لم يخالط خالص الإيمان قلوبهم بعد فلا يزالون على توجس وخيفة في جانب وعد من لا يتخلف عنده ميعاد عز وجل . انظر إلى خطاب الرجلين الذين اطمأنت قلوبهم قومهما من بني إسرائيل على سبيل المبالغة في تحصيل الوعد بالنصر والظفر يقول عز وجل " قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين " (٥) وحيث قد سبق أمر موسى عليه السلام قومه هؤلاء بدخول تلك الأرض المقدسة وجوابهم عنه بالمخالفة خوفا ممن فيها لما عرفوهم به من قوة الأجسام وصلابة البنيان؛ وردت مخاطبات هذين الرجلين على معنى التشجيع والتثبيت وإزالة ما حل بهم من روع وفزع أي ما دام قد وعدكم الله تعالى بالنصر فلا ينبغي أن تصيروا خائفين (٦) وأما ما ورد مما هو نظير ذلك في خطاب عيسى عليه السلام حوارييه وقد اقترحوا إنزال مائدة من السماء عليهم في قوله عز وجل " وإذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين " (٧) فيحتمل أن يجرى على أحاديث هذا الباب أيضا على معنى اتقوا الله

(١) البرهان ٢/٢٤٤ (٢) سورة الزمر الآية ٦٥
(٣) التفسير الكبير ٢٧/١٤، الفتوحات الالهية ٤/ ، الكشاف ٣/٤٠٧
(٤) سورة الأنعام الآية ٨٨ (٥) سورة المائدة الآيتان ٢٣، ٢٤
(٦) إرشاد العقل السليم ٣/٢٤ (٧) سورة المائدة الآية ١١٢

عن أمثال هذا واقتراح الآيات أو اتقوا الله مطلقا إن كنتم كاملين في الإيمان والا ... مما لا يمتنع أصلا أن يراد بالخطاب تحصيل مفاد التقوى والعمل بلوازم ... ن صدقكم في ادعاء الإيمان والإسلام فكفوا عن أمثال ما تسألون وحينئذ فالأمر على حقيقته غير أن كثير من العلماء والمدققين من أهل التفسير اطمأنوا أو آثروا أول الطريقين حتى لقد ذكر عن ابن عطية قوله " أنه لا خلاف في أنهم كانوا مؤمنين وأيد ذلك بمأثور من المنقول " [1] وإن كنت قد رأيت صاحب الكشاف يأبى إلا السير على ثاني الطريقين حيث إن سؤالهم ما سألوا لم يكن عن تحقق منهم ولا عن معرفة بالله تعالى وقدرته سبحانه لأنهم لو حققوا أو عرفوا لم يتفوهوا بذلك إذ لا يليق مثله بالمؤمنين بالله عز وجل [2] .

فالمخاطبون على هذا مرتابون غير مؤمنين، لكن أثير على ذلك مخالفته للإجماع كما أن القول به يحتاج إلى نقل ولم يوجد [3]

ويبقى الجواب عن حقيقة سؤالهم والغرض منه محل تأويل وتفسير بما لا يتسع لمثله هذا الحديث [4]

* مع مؤمني هذه الأمة :

كما قد وقع هذا الوجه في الخطاب في جانب المؤمنين من هذه الأمة وإن لوحظ غلبة جريانه على طريق الشرط نظير قوله تعالى : " ألا تقاتلون قوما نكثوا إيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين " [5] وقوله عز وجل : " إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان .... " [6]

ويلحظ في ورود الشرط في أمثال هذه المخاطبات بأن مزيد مبالغة في الحث والتحضيض على تحصيل مطلوبات الإيمان ولوازمه .

وقد يرد بصورة الأمر في مثل قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا آمنوا ... " [7]

---

(1) روح المعاني ٣/ ٥٨
(2) الكشاف ١/ ٦٥٤
(3) روح المعاني ٧/ ٥٩
(4) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٧/ ٥٤
(5) سورة التوبة الآية ١٣
(6) سورة الأنفال الآية ٤١
(7) سورة النساء الآية ١٣٦

وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله .... " (١)
ولكثرة ما وقع من هذه المخاطبات في جانب الرسول صلى الله عليه وسلم بما قد ينـد عن قصد الحصر أو يضيق عنه المقام لذا استحسنت أن أعرض مما ورد أمثلة هي شواهد للأساليب والضروب التي سلكت ليقاس بعد ذلك المثيل على مثيله أو القريب على ما يقاربه .

* طريق الأمـر :
فكثيراً ما يجرى هذا الضرب على طريق الأمر نظير قوله تعالى : " فاعبد الله مخلصا له الدين " (٢) " فأقم وجهك للدين القيم " (٣) " فاستمسك بالذى أوحى إليك " (٤) والمعلوم من حاله صلى الله عليه وسلم أنه محصل لهذه الأمور كلها من عبادته تعالى والتوكل عليه والاستمساك بما يوحى إليه لا يفتر عن ذلك ولا يتصور منه خلافها لأن خلافها معصوم منها كما كان الأنبياء عليهم السلام معصومين من مثل هذا ولكن ورودها على هذه الأوامر إنما كان على جهة الحث له عليه السلام فالمراد إذن ليس هو تحصيل الفعل أصلا لأنه حاصل وإنما المراد الدوام عليه والاستزادة منه فإن هذه الأمور باب واسع لا ينال مداه .
وقد يأتى هذا الخطاب على هذا الطريق مع تكرير صيغة الأمر منه مثلما جاء عليه قوله تعالى " بل الله فاعبد وكن من الشاكرين " (٥)
وكثيراً ما يردف الأمر بما يفيد التعليل له مبالغة فى أمر الحث والتحريض عليه فى مثل قوله تعالى " فاصبر إن العاقبة للمتقين " (٦) حيث جاء قوله تعالى " إن العاقبة للمتقين " تعليلاً للأمر بالصبر زيادة فى التثبت والدوام ونظير هذا قوله تعالى " .... وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم " (٧)
وربما تلى الأمر أكثر من تعليل له كما فى قوله تعالى " فتوكل على الله إنك على

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣
(٢) سورة الروم الآية ٤٢
(٣) سورة هود الآية ١١٢
(٤) سورة الزخرف الاية ٤٣
(٥) سورة الزمر الاية ٦٦
(٦) سورة هود الآية ٤٩
(٧) سورة الحج الآية ٦٧

الحق المبين " " إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين " (١)
حيث كان قوله تعالى " إنك على الحق المبين " تعليلا لما هو من جهته تعالى ؛
وأما قوله عز وجل " إنك لا تسمع " فهو أيضا مفيد للتعليل لأمر التوكل وإن روعى
فيه جانب ما عليه حاله عليه الصلاة والسلام مع هؤلاء . ومع اختلاف جهة التعليل .
لكن مآلهما غير مختلف إذ بهما يقع توكيد أمر التوكل
وكثيرا ما يقع هذا الضرب على طريق النهي كذلك كقوله تعالى " فلا تكونن من
الجاهلين " (٢) وحاشاه أن يكون عليه الصلاة والسلام جاهلا وأن يقبل أفعال
السفهاء والجهال . وكقوله تعالى : " فلا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد " (٣)
وقوله عز وجل " فلا تكونن من الممترين " (٤)
أو أن يخطر بباله عليه الصلاة والسلام الشرك بالله تعالى عن ذلك وهو أول من
دعى إلى الله سبحانه لاعتناق هذا الدين وقد بلغ به الحرص على إيمان من
كانوا على الشرك حدا كادت تذهب نفسه الشريفة حسرات عليهم لولا تسكين الله
سبحانه فؤاده وسلوانه ومؤانسته حينا وإقناطه من إيمان أمثال هؤلاء ممن استوثق
على قلوبهم بالختم حينا آخر .
ومن كانت حاله على نحو هذا استحال أن يحمل نظير قوله عز وجل " فلا تدع مع
الله إلها آخر فتكون من المعذبين " (٥) على ظاهر معناه إذ كان من حاله ما هو
على الضد من ذلك كما لم يخالطه يوما شك في فساد ما يعبد هؤلاء حتى يكون ما
جاء في قوله تعالى " فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء .. " (٦) إلى أمثال هذه
النواهي .
وكما جاء الخطاب على هذا الباب بطريق الأمر مكررا فقد جاء بالنهي كذلك كما في
قوله تعالى " فلا تطع المكذبين " وبعده " ولا تطع كل حلاف مهين " (٧)
وقد يجتمع الأمر والنهي مع تقديم الأمر كما في قوله تعالى " ثم جعلناك على شريعة
من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون " (٨) ويلحظ هنا أن النهي

(١) سورة النمل الآية ٧٩ ، ٨٠
(٢) سورة الأنعام الآية ٣٥
(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٢
(٤) سورة الأنعام الآية ١١٤
(٥) سورة الشعراء الآية ٢١٣
(٦) سورة هود الآية ١٠٩
(٧) سورة القلم الآيتان ٨ ، ١٠
(٨) سورة الجاثية الآية ١٨

داخل فيما يشمله الأمر فيجرى ذكر النهى بعد الأمر على طريق ذكر الخاص بعد العام زيادة فى التنبيه عليه والاعتناء بمضمونه .

وقد يتقدم النهى نظير قوله تعالى "فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا " (١)

وكذا يرد هذا الضرب على أسلوب الشرط فى مثل قوله تعالى " وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله " (٢)

فهذا الخطاب وارد على سبيل الشرط المبنى على الفرض والتقدير .

وقد يقترن القسم والشرط فى بعض مواقع هذا الخطاب كما فى قوله تعالى : " ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير " (٣)

وأيضا قوله تعالى " ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين " (٤) غير أنه يلحظ إيثار [الذى] فى الموقع الأول [وما] فى الثانى مع ذكر (من) معه لأن العلم فى الآية الأولى علم بالكمال وليس وراءه علم لأن معناه بعد الذى جاءك من العلم بالله وصفاته وبأن الهدى هدى الله ومعناه بأن دين الله الإسلام وأن القرآن كلام الله فكان لفظ (الذى) أليق به من لفظ (ما) لأنه فى التعريف أبلغ وفى الوصف أقصد .

وخص الثانى (بما): لأن المعنى من بعد ما جاءك من العلم لأن قبلة الله هى الكعبة وذلك قليل من كثير من العلم وزيدت معه (من) التى لابتداء الغاية لأن تقديره من الوقت الذى جاءك فيه العلم بالقبلة لأن القبلة الأولى نسخت بهذه الآية وليست الأولى مؤقتة بوقت (٥)

وأما موقع الرعد "ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم فما لك من الله من ولى ولا واق " (٦) فقد أوثر معه التعبير بما ولم تدخل " من " لأن العلم هنا هو الحكم العربى المشار إليه فى صدر الخطاب الكريم أى القرآن فكان بعضا من

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٢
(٢) سورة الأنعام الآية ١١٦
(٣) سورة البقرة الآية ١٢٠
(٤) سورة البقرة الآية ١٤٥
(٥) أسرار التكرار فى القرآن ٣٣
(٦) سورة الرعد الآية ٣٧

الأول ولم ترد " من " لأنه غير مؤقت وقريب من معنى القبلة موقع البقرة "ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم " (١) فهذا جاء بلفظ " ما " وجيء بعد " من " (٢)

ومما يبين الأغراض المذكورة ما اقترن بكل من هذه المواقع من الوعيد ففي الآية الكريمة الأولى منعه الله تعالى بعلمه من الكفرة في قوله سبحانه " ولن ترضى عنك اليهود ..... " وختمها بقوله سبحانه " ما لك من الله من ولى ولا نصير " وفي آية الرعد كان العلم مانعا من ترك شطر القرآن فكانت خاتمتها "مالك من الله من ولى ولا واق " أما اتباع أهواءهم في أمر القبلة فلما كان مما يجوز نسخة كان الوعيد عليه أخف " ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك اذن لمن الظالمين " (٣)

وقد يجتمع في السياق الواحد طريق الأمر والنهي والشرط يقول سبحانه وتعالى " ..... وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين " (٤) والأمر المصدر به هذا الخطاب الجليل وهو إقامة الوجه المستعار لإفراد الوجه بالتوجه إلى شيء معين لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر واللام معه للتعليل أي لأجل الدين فيصير المعنى: محض وجهك للدين لا تجعل لغير الدين شريكا في توجهك وهذا مجاز كناية عن توجيه نفسه عليه السلام بأسرها لأجل ما أمره الله تعالى به من التبليغ وإرشاد الأمة وإصلاحها ثم يأتي الخطاب بالنهي بعده توكيدا لمعنى الأمر قبله وتوكيد الفعل المنهي عنه بنون التوكيد للمبالغة في النهي عنه اعتناء بالتبرؤ من الشرك كما أن إيثار من المشركين لكونه أبلغ في الاتصاف من نحو لا تكن مشركا لما فيه من التبرؤ من الطائفة ذات نحلة الإشراك ثم يأتي النهي الثاني عطفا على ما قبله وإن لوحظ عدم اقتران هذا النهي بنون التوكيد لأنه حيث اقترن بما يومىء إلى التعليل كان فيه غنية عن توكيده لأن الموصول بعده يرمز إلى وجه

(١) سورة

(٢) أسرار التكرار في القرآن ٣٤

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل ٣٨، ٣٩

(٤) سورة يونس الآيتان ١٠٥، ١٠٦

النهى عن دعائك إذ دعاء أمثالها لا يقصده العاقل ·
وقوله سبحانه " من دون الله " اعتراض بين " تدعو " ومفعوله، وفى ضمنه معنى الحث على دعائه لله سبحانه على طريق الإدماج ·
وتفريع الشرط " فإن فعلت " على النهى قبله للإشارة إلى أنه لا معذرة لمن يأتى ما نهى عنه بعد أن أكد نهيه وبينت علته، فمن فعله بعد ذلك فقد ظلم نفسه وجاوز حد ربه [(١)] ويظهر من كل ما مر فى هذا المبحث أن الحاكم فى أمثال هذه المخاطبات خصوص السياق وإن كل حكم على جهة التعميم غير مأمون لافتقاده أصل مهم لا غنى عنه وهو جانب السياق ومقتضيات الأحوال التى هى أبدا الفصل فى كل نزاع والمستند فى كل حكم، كما ظهر أن فى حمل ما حمل منها على وجه التهييج والإلهاب أغراضا وغايات جليلة وإن تعددت تبعًا لخصوص السياق والمعنى وطريق التعبير إلا أنها جميعا تلتقى حول غاية عظمى وهى تأكيد سلطان الألوهية وشموله لكل ما سوى الحق سبحانه فليس أحد بمنأى عن المؤاخذة حتى مع فرض تصورها كائنًا من كان فإذا كان هذا هو الحال مع من هم أحب الخلق إلى الله تعالى فما البال مع سائر الخلق ممن يتصور منهم وقوع المخالفة، ومن هذا يظهر قصد الإلهاب والحث على الفعل فيما أمر به وعلى الانتهاء والكف عما نهى عنه ·

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١١/٣٠٣

أسلوب الحكيم

ومن الكلام المخرج على خلاف مقتضى الظاهر ما يسميه السكاكي بالأسلوب الحكيم ، ولا شك أن هذا الأسلوب يحتوي على اعتبار لطيف يليق بكل من حال المتكلم والمخاطب على ما يتضح من خلال الشواهد .

وهو على ما يذكرون تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له .

وواضح من ذكر كلمة (أو) في التعريف أن هذا الأسلوب يرد على اعتبارين ومن مشتهر ما ذكروه شاهدا للأول قول القبعثري الخارجي للحجاج الثقفي الأموي لما قال له متوعدا بالقيد : لأحملنك على الأدهم (والمراد القيد الحديد الأسود) ، مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب (والمراد الفرس الأسود والفرس الأبيض) فإنه أبرز وعيده في صورة الوعد حملا لكلامه على ما لا يترقبه .

فقال الحجاج : ويحك إنه لحديد فقال القبعثري : لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا ، فحمل كلامه أيضا على غير ما يريد ، تخطئة له ، وبيانا له على أن الأليق به الوعد لا الوعيد . وهكذا ترى أن القبعثري حمل الأدهم في قول الحجاج على الفرس الذي غلب سواده بياضه ، وضم إليه الأشهب ، وهو الذي غلب بياضه سواده ، وكأنه يقول للحجاج : من كان مثل الأمير في المكانة والسلطان والسعة فحري به أن يصفد أي : يهب ويعطي المال ، لا أن يصفد ويوثق ، وكذلك حمل كلمة الحديد على غير ما يريد الحجاج .

وكان هذا الشاهد أثر وشاية بالقبعثري عند الحجاج ، وذلك أن القبعثري كان جالسا مع جماعة في بستان في زمن الحصرم (العنب الأخضر) فذكر بعضهم الحجاج ، فقال القبعثري : اللهم سود وجهه ، واقطع عنقه ، واسقني من دمه ،

فبلغ ما قاله الحجاج ، فسأله في مراده ، فذكر أنه يقصد بذلك القول المنسب ،

ومن سلوك هذه الطريقة في جواب المخاطب قول الشاعر مفتخرا :

أتت تشتكي عندي مزاولة القـــرى ∴ وقد رأت الضيفان ينحون منزلي
فقلت كأني ما سمعت كلامهـــــــا ∴ هم الضيف جدي في قراهم وعجلي

والقرى: طعام الضيف ، وينحون : يقصدون . يريد الشاعر أن زوجته قـد أقبلت عليه تلومه على كثرة قراه عندما رأت الضيفان يقبلون عليه ويتجهون إلـى منزله فحول شكواها من كثرة القرى إلى شكواها من قلته ، وكأنه لم يعبـأ بما تقـول . والشاهد إذن في أنه أجابها بغير ما تتطلب من الشكوى ، ولهـذا قيل إن هذا من القسم الثاني لا الأول ، لأنه ليس فيه حمل كلام على خـلاف ظاهره ، وإنما هو من تلقى السائل بغير ما يتطلب للتنبيه على أن الأولـى بها الاستعداد لهم لا الشكوى منهم ، وعلى كل فإن عبد القاهر يطلق علـى ما كان على مثل البيتين المغالطة وهذا الإطلاق أليق ، بما كان جاريا على النوع الأول ، وأما الثاني فوصف الحكيم أليق به لبناء الاعتبار على داع وغـرض على ما يستطيع .

ومن أشهر ما يذكرونه شاهدا على النوع الثاني لهذا الأسلوب قوله سبحانه وتعالى : (يسألونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج) .

يروى في الآثار أن بعض الصحابة سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلـم — ما بال الهلال يبدو ضئيلا دقيقا مثل الخيط ثم يزداد قليلا حتى يصير بدرا ثم يتناقص فيعود كما بدأ ؟ فكان مقتضى الظاهر أن يجابوا ببيان هذا السبب ، ولكنهم أجيبوا ببيان الحكمة والغرض من وراء هذا الاختلاف ، بقوله تعالـى : (هـي مواقيت للنـاس والحج) فإن الأهلة معالم للناس يضبطون بهـا شعائرهم الدينية من نحو حج وصيام ، وكما ينظمون عليها شئون معاشهم مـن نحو زراعة أو تجارة أو أسفار ، فما أجيبوا به إذن هو الأهم ، وكان هذا الأولـى بسؤالهم لتعلقه بالغرض ، لا ما يسئلون عنه ، إذ ليس معه كبير فائدة تستوجب السؤال عنه أصلا أو الجواب إن وقع السؤال ، لهذا عد النظم الحكيم إلـى

الكلام والجواب بما هو أهم وأنفع حتى وإن كان على خلاف ما تطلبوه في سؤالهم .

ومما يجرى على هذا الأسلوب كذلك قوله سبحانه : (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين واليتامى والمساكين وابن السبيل) . سألوا عن بيان جنس ما ينفقون ، أو عن بيان مقداره ، أو عن كليهما فكان مقتضى الظاهر أن يجابوا ببيان الجنس أو المقدار أو ببيانهما جميعا ، ولكنهم أجيبوا ببيان المصارف ، تنبيها لهم على أن هذا هو الأحق بالسؤال عنه ، لأن النفقة لا تجزئ إلا أن تصرف في وجوهها ، ففي الآية الكريمة نزل السؤال عن المنفق منزلة سؤال غيره أولى بحال السائل وهو السؤال عن المصارف . وفي قوله تعالى : (يسألونك عن الأهلة) نزل السؤال عن سبب تشكل الأهلة منزلة السؤال عن الحكمة المترتبة عليه ، لأنها أهم منه ، ومحل الاستشهاد بالآية (يسألونك ماذا ينفقون) إذا كان السؤال عن المنفق فقط ، أما إذا كان على المنفق والمصرف معا ، فتكون الإجابة عن البعض صراحة وعن البعض الآخر ضمنا ، وليست من قبيل تلقى السائل بغير ما يتطلب .

ومن هذا أيضا أجوبة موسى لفرعون في قوله تعالى : (قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون ، قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) .

ومن المأثور الذى يدخل في هذا النوع من الأسلوب الحكيم أيضا ما يذكر من أن العباس رضى الله تعالى عنه قد سئل أأنت أكبر أم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأجاب في أدب رفيع : رسول الله أكبر مني ولكني ولدت قبله . فحمل العباس السؤال عن كبر السن محمل السؤال عن كبر المنزلة والمكانة والفضل ، فكان الجواب منه على هذا الاعتبار .

ومن هذا الضرب كذلك ما حكوه في شأن جواب المهلب بن أبي صفرة حين

سأله الحجاج أنا أطول أم أنت ؟ فأجاب : أنت أطول ، وأنا أبسط قامـــة ،
سؤال الحجاج عن الطول الذى هو ضد القصر وجواب المهلب عن الطـــول
بمعنى التفضل ، وكأنه ينبه بذلـــك على ما هو الأجدر بالسؤال عنه .

++++++++++++++++++

بسم الله الرحمن الرحيم

من علم البيان

((التشبيه))

يعد التشبيه أول أركان علم البيان الثلاثة ، كما يعد من أكثر ضروب التعبير شيوعا واستعمالا فى الكلام البليغ ، حتى قيل : إنك إن عددت أكثر كلام العرب جاريا عليه لم تبعد ، كما أنه وارد فى النظم الكريم والسنة المشرفة كثيرا ، وله ضروب وأنواع ومن وراء كل هذه أسرار وأغراض يكشف عنها النظر فى شواهده ، والتأمل فى سياقاته وأغراضه ، ودلائل تراكيبه وإشارات كلامه وألفاظه .

يقول سبحانه وتعالى فى وصف حال قيام الناس للبعث ، وحال الجبال عند إذنه تعالى لقيام الساعة : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش) الآية الكريمة الأولى تشرح حال قيام الخلق وإخراج الناس من قبورهم للبعث ، فهم على حال من الانتشار والتوزع فلا جامع بينهم ولا رباط يألف بل هم يدفعون ، أو يندفعون فى جهات مختلفة حيث ألقت الأرض بهم وطرحتهم عنها فهم يتقاذفون فى أنحاء شتى ، انظر كيف عبر النظم الحكيم عن هذه المعانى وأشالها بطريق مجسد ومصور لتلك الحال بأمر معاين ومعلوم فى الدنيا ، فصورة هذا الفراش المبثوث صورة مشاهدة معروفة فكان الحاق ما يكون عليه حال الناس يومئذ بحال هذا الفراش مقربا بل وشارحا لتلك الحال ، ثم تأتى الآية الثانية لتكشف عما ستئول إليه حال هذه الجبال الشوامخ ، تلك الرواسى التى هى أوتاد الأرض إلى تلك الحال المغايرة تماما والمقابلة لما كانت عليه ، إذ تصبح بتصيير الله تعالى عبارة عن أشياء يلغ بها الصغر والضآلة والخفة حدا تتطاير معه فى جو السماء ، وليس أدل على ذلك المعنى من تصويره بصورة قطع الصوف المجزوز يقذف به فيتناثر فى جهات مختلفة فى خفة بالغة ، وهذا ذلك دليل قدرة باهرة من جانب الله تعالى ، كما هو زجر وتنبيه لمن يغفل عن تدبر مآل الأمور .

ومثل هذا التصوير وما يفيده حاصل عن طريق الإلحاق والتشبيه .

وعلى ذلك فالتشبيه يراد به إلحاق أمر بآخر فى وصف جامع بينهما بـأداة لغرض، كما ألحقت حال الناس يوم البعث بحال الفراش المبثوث لما بينهما من معنى الانتشار والتفرق فى جهات عدة ، وأداة هذا الإلحاق وعلامته الدالة عليه الكاف ، كما ألحقت الجبال وما تكون عليه عند تهديل الله تعالى إياها عند قيام الساعة بحال قطع الصوف المزوز لمعنى جامع بينهما ، وهو التطاير فى خفة وبالغ سرعة ، وأداة هذا الإلحاق أيضا ، والعلامة المرشدة إليه الكاف .

ويتضح من هذا البيان أن التشبيه فى الأصل يقوم على عناصر أربع وهى : المعروفة بأركان التشبيه ، وهى المشبه الجزء الذى يراد إلحاقه بغيره والمشبه به وهو ما يلحق غيره به لأجل تحصيل معنى التشبيه ، ووجه الشبه ، وهو الوصف المشترك بين طرفى التشبيه ، والجامع بينهما ، وأما الأداة فهى العلامة الدالة على التشبيه وهى كثيرة منها : الكاف وكأن وهما من قبيل الحروف ، ومن قبيل الأسماء : نحو مثل وشبه ومماثل ومشابه ومحاكى إلى نحو ذلك ، كما أن منها ما هو من قبيل الفعل من نحو يشبه ويشابه ويماثل ويحاكى إلى آخره .

والأصل فى هذه الأركان الأربع الذكر ، ويسمى التشبيه حينئذ المرسل ، لكن قد يحذف فى اللفظ لغرض أحد الأركان ما عدا المشبه به لكونه الأصل الذى يبنى عليه أمر التشبيه أساسا فلا يسوغ حذفه ، ومع طى أحد الأركان الثلاثة أو أكثر ، فالكلام على تقديره ، ولذلك استحسن أن يطلق على هذا الطى إضمار لا حذف ، إذ الحذف مفيد لمعنى الطرح والاستغناء ، وأما الإضمار فطى فى الذكر ، لكن مع مراعاة ما أضمر معنى .

ويتنوع التشبيه باعتبار ما طوى من أركانه إلى مجمل وهو ما أضمر فيه الوجه فقط ، ومؤكد وهو ما طويت فيه أداته ، وبليغ ، وهو ما جمع فيه بين إضمار الوجه والأداة ، ولكل من هذه الأنواع بلاغته وسياقه ، وإن عد أهل البيان ما سمى بالتشبيه البليغ أبلغ هذه الأنواع وذلك منهم بناءً على المقارنة بين هذه الأنواع باعتبار ذات التراكيب فى كل منها ، وهذا أمر مفهوم ، فإن طى الأداة والوجه معا يقوى أمر الإلحاق والمشابهة ، ويحقق معنى المبالغة حتى لكأن المشبه

من جنس المشبه به ، فانظر إلى قوله تعالى فى شأن أمهات المؤمنين ، وما ينبغى أن يقابلن به من بالغ التوقير والتكريم : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ....) ، فحيث كان من شأن الأمهات بحكم الفطرة والطبع السوى لهن ـ من أبنائهن تمام التوقير وبالغ التكريم ، ثم إن من وراء هذا الإلحاق أيضا الإشارة إلى أمر مهم ، ويعد إحدى الخصوصيات التى خص بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك أنه يحرم التزوج من زوجاته من بعده ، فلا يحل هذا على ما ورد صريحا فى موضع آخر وذلك حسم لقضية ، وقطع لما قد يقع فى القلوب ، أو يطرأ على الخاطر ، أو تحدث به النفس حول هذا الأمر فالتحريم أو عدم حل النكاح من إحدى أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد موته معنى مفهوم من هذا الإلحاق ، كما هو غرض مقصود ، وفى هذا مزيد تكريم وتوقير لحق النبوة فى خصوصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم إن فى إيراد التركيب على هذا النحو بطى كل من الأداة الدالة على التشبيه ، وكذا المعانى المرادة به (وجه الشبه) يشير إلى قصد المبالغة فى تلك الأمور حتى لكأن أزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بين أمهات المؤمنين على الحقيقة ، لا على التشبيه ، والتنظير ، فإن الشأن فى إضمار الأداة الدلالة على أن المشبه قد صار من المشبه به ، كما أن طى الوجه يوحى بالمشاركة المشبه بالمشبه به ، فى كل وجه ، ويبقى تمييز المراد بمعونة القرائن وغرض الكلام وسياقه .

وهذا الضرب من التشبيه وارد فى النظم الحكيم فى مواضع عديدة ، وفى سياقات مختلفة ، نظير قوله تعالى : (وجنات عرضها السموات والأرض) ، وقوله سبحانه وتعالى فيما تئول إليه حال الجبال عند الإذن من قبله تعالى بقيام الساعة : (وهى تمر مر السحاب) ، وكذا قوله سبحانه وتعالى فى بيان حقيقة حال المخادعين ممن لا يستجيبون لداعى الحق ولا يعملون على مقتضاه إذ هم لم يتبصروا حقائق الإيمان : (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) .

وفى السنة المطهرة أنماط عالية من قبيل هذا الضرب من التشبيه ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (الصوم جنة ما لم يخرقها) .

الجنة : ما يقى الإنسان ويحول بينه وبين ما به من ضرر كنحو ستر أو لباس يتقى به المحارب مكاره الحرب وأذى المحاربين .

ويعقب الشريف الرضى فى كتابه المتفرد فى بابه : المجازات النبوية على هذا الحديث الشريف وما فيه من بيان معبر مع وجازة لفظه :

يقول الشريف الرضى : (وذلك أنه عليه الصلاة والسلام شبه الصوم الذى يجن صاحبه من لواذع العذاب ، وقوارع العقاب ، إذا أخلص له النية وأصلح فيه السريرة ، فجعل عليه الصلاة والسلام من اعتصم فى صومه من الذلل ، وتوقى جرائر القول والعمل ، كمن صان تلك الجنة وحفظها ، وجعل من أتبع نفسه هواها ، وأوردها رداها ، كمن خرق تلك الجنة وهتكها ، فصارت بحيث لا تجن من جارحة ، ولا تعصم من جائحة ، وذلك من أحسن التمثيلات وأوقع التشبيهات .

وواضح أن التشبيه هنا من نوع البليغ فقد شبه الصوم بالجنة التى تقى الإنسان ما يصيبه من السهام ونحوها ، والأصل الصوم كجنة فى الوقاية ، فحذف كل من وجه الشبه ، والأداة .

ومن هذا أيضا ما أورده الشريف الرضى من حديث طويل قوله عليه الصلاة والسلام : (ثم يكون ملك عض يستحل الفرج والحرير) .

يقول الشريف الرضى تعليقا على هذا الحديث ، قوله عليه الصلاة والسلام (ملك عض) ، والعض فى الأصل هو الرجل الداهية المنكر ، وربما سمى أيضا بذلك الرجل السئ الخلق المتكبر ، فكأنه عليه الصلاة والسلام يشبه الملك الذى أوما إليه فى السطوة والقسوة والطماح والنزوة بذى الدهاء والنكر .

والتشبيه هنا على ما ترى من ضرب البليغ كذلك .

ومن كلامهم الجارى على هذا الضرب ما يذكره صاحب التمثيل والمحاضرة :

الناس أسراب طير يتبع بعضهم بعضا ، هذا التركيب وما فيه من تشبيه يعبر عن حالة من حالات كثير من الناس حتى كأنها قد صارت فيهم عادة وطبعا ، عادة المتابعة دون تعقل ، أو تبصر لحقيقة الأمر ، حيث ترى من الناس من يتلاحقون فى متابعة قول قيل ، أو رأى أبدى ، أو فعلا عمل دون أناة — ولا إمعان وإنما مجرد اتباع ركونا إلى ما هو أيسر أو ربما ابتغاء سمعة أو غرض مراءاة لدى سطوة أو جاه ، المهم أن لا يعرض هذا القول على العقل تمحيصا وعلى النفس حتى يكون القبول فيما يقبل أو الرفض لما يرد يطرح معبرا عن حقيقة وموقف لا مجرد تقليد ولمعتادين شأن الطير ، بحكم الغريزة المفتورة عليها ، والمتوافقة مع طبائعها وشئونها للاستئناس ، والطير جماعات يتبع بعضها بعضا ، وليس ذلك منها خروجا على فطرتها وأحوال هى لها ، وإنما الخروج من بنى آدم وهم قد منحوا القلب والعقل والفؤاد وأعمال ذلك فريضة ، وإهماله معصية وخروج عما ينبغى أن يكون ، ثم أنك ترى التركيب هنا ، وقد بنى على ما يفيد المبالغة فى المعنى المراد ، فقد أورد مورد التشبيه البليغ لطى كل من الأداة والوجه معا .

وسوف نعرض مزيدا من شواهد التشبيه بضروبه مع بيان وتحليل ، لكن ليس قبل أن نشير فى إيجاز إلى أمر مهم لا ينبغى الغفلة عنه ، وهو الفرق بين التشبيه والتمثيل .

الفرق بين التشبيه والتمثيل :

يكاد يتفق أهل البيان على وقوع الفرق بين التشبيه والتمثيل وإن وقع بينهم الخلاف فى الوجه الفارق بينهما وما يكون .

والآراء المشهورة فى ذلك ثلاثة :

فالخطيب يرى الفرق مرده إلى الافراد والتركيب . فالتمثيل ما كان وجه الشبه معه مركبا ، سواء كان ذلك حسيا أو عقليا ، وما كان مفردا فهو تشبيه .

لكن السكاكى سبق وأن اعتبر التمثيل حاصلا بالتركيب لكن مع كون الوجه

عقليا فقط ، وهذه هى جهة المخالفة بينه وبين ما ذهب إليه الخطيب بعده ، فالتشبيه التمثيلى كما يرى السكاكى : إذن ما كان الوجه جامعا بين التركيب والعقلية .

وأما شيخ البلاغيين : عبد القاهر فإنه أسبق فى التفريق ، لكن على وجه آخر مختلف ، اذ مبنى الفرق عنده ليس مرده إلى الافراد والتركيب ، وإنما مبناه على ما أسماه التأول فى وجه الشبه ، فما كان الوجه فيه متأولا ، فهو التمثيل بصرف النظر عن كونه مفردا ، أو مركبا ، والتشبيه ما كان الوجه فيه غير متأول ، بل هو ظاهر صريح متحقق ، فى الطرفين ، وعلى هذا فمراد عبد القاهر بالوجه المتأول مالم يكن الوجه معه مذكورا صريحا وظاهرا يشترك فيه الطرفان حقيقة ، كاشتراك الخد والورد ، فى وصف الحمرة ، فهذا الوصف موجود مع كل من الطرفين ، ومتحقق فيهما حقيقة ، غاية الأمر أن حمرة هذا تكون أقل من حمرة الآخر ، غير أن الاختلاف فى الدرجة شئ وتحقق الصفة أصلا شئ آخر ، ومن هنا عد عبد القاهر ما كان على مثل هذا من التشبيه ، أما نحو قولهم كلام الفضلاء كالعسل حلاوة وكالماء سلاسة ، وكالنسيم رقة ولطفا ، فهذا من التمثيل ، لا التشبيه إذ أن الوجه هنا ليس ظاهرا ولا متحققا فى طرفى التشبيه ، لأن المذكور هنا وهو الحلاوة والسلاسة والرقة واللطف ليس الوجه فى الحقيقة لأن من شأن الوجه فى التشبيه تحققه فى الطرفين ، وهنا لا يتيسر هذا الاعتبار ، فإن الحلاوة مثلا وإن كانت موجودة متحاصلة فى المشبه به وهو العسل حقيقة ، إلا أنها غير متحققة وموجودة على هذا النحو فى المشبه الذى هو الكلام ، إذ أن الكلام لا يوصف بالحلاوة على الحقيقة ، وهكذا الحال مع السلاسة والرقة واللطف ، إذ أنك محتاج إلى تأول وجه واستنباط من تلك الأوصاف المذكورة أوصافا وأحوالا لا يمكن أن يجتمع حولها الطرفان ، فالحلاوة تستلزم معنى الاستطابة ، أو نحو هذا ، وكذا كلام أهل الفضل يمنح النفس المستقبلة له هذا المعنى ، فاستطابة النفس إذن اللازمة عن وصف الحلاوة المذكورة هى فى الحقيقة الوجه المقصود لاشتراك الطرفين فيه .

ولا ريب فى أن لهذه الآراء كلاما وتفصيلا ، ومقارنة مما لا يدخل فى غرضنا الآن ، غير أننا نشير بإجمال إلى أن مذهب الخطيب كما هو ظاهر أيسر مأخذا

وأوضح طريقا في الوقت الذي يمكن أن يوصف به طريق السكاكي بأنه أعدل، وأما ما اتجه إليه الإمام عبد القاهر فلا شك في أنه أدق وأعمق، لكن لما يبدو على ما بني عليه شيء من الغموض على الرغم مما بذله في إيضاح مذهبه والحاحه على جني الفرق عنده واستشهاده وتحليله البارع على طريقته إلا أن ذلك كله لم يغر من بعده على اتباعه، وإنما الاختلاف حول فهم مراده وتأويل كلامه ولذا تعددت الآراء بعده، ونجد صرف كثير من الناس إلى اتباع ما هو أيسر وأوضح .

من بليغ التشبيه والتمثيل :

وهنا نورد بعون الله وتوفيقه نماذج عديدة ومختلفة من بليغ التشبيه والتمثيل بأنواعهما وضروبهما ومراتبهما قاصدين إلى الأنماط العالية من الكتاب الكريم والسنة المطهرة وكذا من جيد الكلام منثوره ومنظومه .

وينبغي أن يكون معلوما أن الغرض يكاد ينصرف أصلا إلى التماس وجوه الجمال وملامح البلاغة والبيان وحسن الموقع ودقة التصوير، في هذه التشبيهات والتمثيلات مع لحظ واعتبار ما عليه التركيب، وما توحي به أو تشير إليه ألفاظه مما يكون له أثر على التشبيه والغرض منه، وذلك بما يتسق مع حال الكلام وسياقه .

يقول سبحانه وتعالى في شأن اليهود، وعدم تحصيلهم نفعا من كتابهم المنزل عليهم مع عكوفهم عليه حفظا : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ....) الآية الكريمة تسجل على هؤلاء سوء تقديرهم تجاه الكتاب المنزل عليهم هداية لهم وعملا على مقتضياته، مع أنهم بذلوا جهدهم وأفرغوا طاقتهم في حمله حفظا وترديدا على الألسنة، دون أن يخالط قلوبهم ويستقر في نفوسهم ويرسخ في عقولهم تدبرا، فيظهر أثر ذلك كله عملا وسلوكا وإفادة، هذا هو الغرض من كتابهم كما هو الغرض من كل كتاب منزل، أما الاكتفاء بمجرد التلقي فدليل جهالة، إذ هو والعدم سواء، فهم قد حملوا

التوراة ، واحتملوا فى ذلك عنتا ومشاق ، ثم لم يحملوها ، إذ لم يعد حملهم عليهم بخير وفائدة ، ولهذا كانت حالهم أشبه شئ بحال الحمار الحامل للأسفار ، التى هى أوعية العلم ، وخزائن ثمرة العقول ، ثم لا يحس بها فيها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شئ ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ويتعبه .

وواضح على هذا أن التشبيه هنا من باب المركب ، حيث إن كل طرف هو عبارة عن حال أو هيئة أخذت من مجموع كلمات مزج بينها حتى خرج منها تلك الحال ، وهى فى المشبه حال أولئك اليهود الذين أثقلوا على التوراة حفظا دون أن ينتفعوا بشئ من مطلوباتها ، والمشبه به حال الحمار وحمله الكتب النافعة من غير أن يعيها يحمل شيئا مع تحمله مشاق ما حمل ، والوجه الحرمان فى كل مما فيه نفع ، مع وجوده وتحمل المشاق ، وأما الأداة فالكاف ، ومثل مزيده للتأكيد ، أو الأداة مركبة من كل من الكاف ، ومثل لتأكيد أمر المشابهة والتشبيه هنا تمثيل على كل رأى ومذهب مما سبق الحديث عنه .

ومن ذلك قوله تعالى فى وصف حال الحياة وما تئول إليه : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) فالغرض تشبيه حال الحياة فى بهجتها وزينتها وأنس النفس بها ، وإقبالها عليها وفنائها وزوالها بحال النبات ينزل عليه الماء فيصبح مخضرا يانعا ، مثمرا ثم يصير إلى زوال ، فمع الحالين ما يبهج ويعجب ويؤنس أول الأمر وتحول ذلك سريعا إلى إهلاك وزوال .

وقد لحظ بعض أهل العلم من وراء ذكر الماء هنا أمرين : أن الماء إذا أخذت منه فوق حاجتك تضررت ، وإن أخذت منه قدر الحاجة انتفعت به ، فكذلك الدنيا ، والأمر الآخر أن الماء إذا أطبقت كفك عليه لتحفظه لم يحصل فيه شئ ، فكذلك الدنيا ، ولا يغيب أن ليس الماء وحده يقع به هنا التشبيه ، وإنما بمراعاة نزوله على النبات وظهور أثره فيه وما يعقب ذلك من يبس النبات على ما أوضحنا .

ومن تشبيه المفرد بالمركب ، على ما يذكر صاحب البرهان قوله تعالى :
(مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه
نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء .....) .

يذكر صاحب البرهان أنه سبحانه وتعالى أراد تشبيه نوره الذي يلقيه
في قلب المؤمن ، ثم مثله بمصباح ، ثم لم يقنع بكل مصباح ، بل مصباح اجتمعت
فيه أسباب الإضاءة ، بوضعه في مشكاة ، وهي الطاقة غير النافذة ، وكونها
لا تنفذ ، لتكون أجمع للتبصر ، وقد جعل فيها مصباح في داخل الزجاجة ،
فيه الكوكب الدري في صفائها ، ودهن المصباح من أصفى الأدهان وأقواها وقودا ،
لأنه من زيت شجر من أوسط الأشجار لا شرقية ولا غربية ، فلا تصيبها الشمس في
أحد طرفي النهار ، بل تصيبها أعدل إصابة .

وهذا مثل ضربه الله للمؤمن ، ثم ضرب للكافر مثلين أحدهما لبيان سوء حاله
ومآله في الآخرة ، وهو قوله سبحانه وتعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب
بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه
حسابه والله سريع الحساب) ، فهذا في شأن بيان حال من لم تقترن أعمالهم
بصحة العقيدة ، فلا أثر لها ولا نفع لهم من ورائها فتخيب آمالهم ، فحالهم
تلك كحال من اشتد به العطش بصحراء ، وقد رأى سرابا فتخيله ماء فأمل في
الري فكلما اقترب اشتد عطشه ، مع ازدياد أمله الى أن تبين أن لا حقيقة
لماء أصلا ، بل هو محض وهم ، فانقطع أمله وتجمعت حسرته ، لفقده ما تطلع
إليه بوجود ما يطمعه والوجه البداية المطمعة المؤيسة مع النهاية المخيبة

ثم مثلت حال الكفرة المحرومين من نور الهدى والإيمان في الدنيا بما في قوله
تعالى : (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب
ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا
فما له من نور) فهنا قد مثلت حال هؤلاء المحرومين من كل ثواب ونفع

وهدى بحال الظلمات الكثيفة فى بحر كثير الأمواج تتراكم أمواجه وتتداخل ومن فوق تلك الأمواج سحب تحجب وتستر أضواء النجوم ، على نحو يشير إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها ، حتى كأنها بلغت السحاب .

وفى هذا التمثيل إيماء إلى قبح أعمال الكفرة وفقدها لسائر وجوه النفع والخير بل هى شر محض وضرر خالص .

ومن بليغ التمثيل فى القرآن الكريم وبديعه أيضا ما فى قوله سبحانه وتعالى : (حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) المقصود تصوير حال من لم يستجب لداعى الإيمان الحق ، والتوحيد الخالص ، وآثر طريق الكفر والإشراك ، ومن كان هذا شأنه من التصميم على الشرك أو اللجوء إليه مع وضوح دلائل التوحيد وانكشاف براهين الإله الحق خالق الكون ، والإنسان فيه مكرم من قبله تعالى بتسخير مخلوقات الكون له لتيسير سبل الحياة والمعاش فمن لم يقدر لتلك النعم حقها فيعترف بالمنعم عليه بها إلها واحدا فغير جدير بأن يستخلف فى الأرض لأنه فقد بإشراكه بالله الخالق ما ليس حق ولا صدق فليلفظه الكون ولينبو عنه مكانه فيه ، وليذهب به إلى حيث لا يبقى له بظاهر الكون شئ .

النظم الكريم إذن يصور حال هؤلاء المشركين المكابرين بإحدى حالين الأولى حال من خر من السماء مندفعا فى جوها متساقطا ، لكنه لن يسقط إذ تتجاذبه طيور من طيور الله المرسلة تتخاطف أجزاءه وعناصره ، فيصير بها فتاتا مبثوثا ومتجمعا فى بطونها ، هذه إحدى الحالين .

أما الثانية : فكحال من قذف به من السماء أيضا لكنه لن يهوى به سقوطه إلى الأرض ، إنما تهوى به الريح تأخذه وتصحبه ولا تدعه سوى فى مكان هو غاية فى البعد والستر والخفاء حتى لا يسمع به أحد ولا يقف على أمره خلق .

وفى كلا الحالين تصوير لمدى انقطاع الرباط بين من يشرك ، وبين الكون

لأنه بشركه قد قطع الصلة بينه ، وبين الله تعالى الواحد الأحد الخالق له وللكون الذى هو فيه .

ولا ينبغى أن يغيب عن دارس البيان العالى التنبه إلى أمور فى هذا النظم الكريم .

فصيغة المضارع : (يشرك) ترمز إلى أن هذا المعنى قائم وحاصل مع كل مشرك فى كل زمان وجيل ، فليس مقصورا على واحد بعينه ، ولا على مشركى زمان بذاته .

كما أن التعبير بصيغة المضارع (فتخطفه) فضلا عن إيثار مادة الخطف يشير إلى أن تلك الطير وقد أقبلت عليه تتجاذبه لم تدع ذلك الأمر حتى أتت عليه من كل جانب وجهة فلم تبق له أثرا ، كما أن تصدير فعل الخطف بالفاء يشعر بتلقف تلك الطير له فور سقوطه من جوف السماء ، وكأنها ترقبه ومجرد أن بدا لها أقبلت عليه وتداعت عليه تفتك به ، وتصيره طعاما فى بطونها ، ثم إن تعريف : (الطير) يرمز إلى أنها طيور خاصة ومعلمة ، هى طير من طيور الله تعالى المرسلة والموكل بها تلك المهمة ، فليس ذلك منها محض صدفة ولا هو أمر طارئ ، كما أن تعريف : (الريح) يرمز كذلك إلى أنها ريح خاصة ومهيأة لما وقع بها ، وإفراد الريح على ما هو عليه غالب العرف القرآنى فى استعمال الريح مفردا فيما فيه ، شر ، ويقع فيه ضرر .

ومن باب التشبيه ما يذكره الشريف الرضى وينسب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - (الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب) وذلك أن التحام المولى بوليه كالتحام النسيب بنسيبه فى استحقاق الميراث ، وفى كثير من الأحكام وذلك مأخوذ من لحمة الثوب وسداه لأنهما يصيران كالشئ الواحد بما بينهما من المداخلة الشديدة والمشابكة الوكيدة ، وعلى هذا فالحديث تشبيه المعروف بالمرسل حيث شبه عليه الصلاة والسلام لحمة الولاء بلحمة النسب فى قوتها وذكر أداة التشبيه .

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (المؤمن مؤمن راقع) والمراد أن المؤمن إذا أساء أحسن وإذا أخطأ ندم ، فكأنه يوهن دينه بمعصيته ، ويرقعه بتوبته ، فشبه عليه الصلاة والسلام بمن يخرق ثوبا ، ثم يبادر برقع ما خرق ، ورتق ما فتق ، في الحديث تشبيهان بليغان ، حيث شبه المؤمن بخارق الثوب وهو (موه) ، وذلك عند ارتكاب المعصية ، وشبهه بالراقع الذي يرقع الثوب ، ويخيط فتقه ، وذلك عند توبته ، وحذف وجه الشبه وهو الإفساد والإصلاح في كل ، وحذفت أداة التشبيه والأصل المؤمن كالموهي الراقع .

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :(إن من أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه المسلم) في هذا الحديث الشريف تشبيه بليغ لأنه - صلى الله عليه وسلم يشبه تناول الإنسان من عرض غيره بالذم والوقيعة والطعن بالربا في الأموال وهو أن يعطي الإنسان القليل ليجوبه الكثير ، فإنه يستربي المال بذلك الفعل : اي يطلب نماه وزيادته، وأصل الربا عندهم مأخوذ من الزيادة ، يقولون ربا الشيء في الماء إذا زاد وانتفخ ، ومنه الربوة ، وهي ما علا من الأرض وارتفع ، ومن ذلك قوله تعالي : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) أي : رطب ثراها ، وكثر نبتها ، فالحديث الشريف إذن من التشبيه البليغ حيث شبه غيبه المرء لأخيه المسلم بأشنع الربا حرماً والزيادة فيه أكثر حرمه فكأنه عليه الصلاة والسلام قال (استطالة المرء في عرض أخيه المسلم من أحرم المحرمات) فوجه الشبه الحرمة وارتكاب الذنب وحذف وجه الشبه والأداة .

من روائع التمثيل شعرا

وقد أغرم الأدباء والشعراء بهذا الضرب وأتوا منه بصور متعددة تكشف عن مدى خيالهم واقتدارهم في انتزاع الصور على نحو يستدعي شيئا غير قليل من التلطف في تناول المعنى والغرض .

ومن ذلك قـول الشاعـر :

ودع الكذوب فلايكن لك صاحبا ... إن الكذوب يشين خلا يصحب
يلقاك يحلف أنه بك واثق ... فإذا توارى عنك فهو العقرب
يسقيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ففي تشبيه الكذوب كثير الكذب بالعقرب ، المشبه لايشارك المشبه به في ذات الوصف الملحوظ وهو اللدغ ، وإنما في لازم هذا الوصف وهو الإيلام الشديد وبالغ الضرر وذلك يحتاج إلى تأول وصرف عن الظاهر علي ما بنى عليه عبد القاهر أمر التفريق بين التشبيه والتمثيل كما سبق التنبيه عليه .

ويقول ابن المعتز

اصبر علي مضض الحسود ... فإن صبرك قاتله
فالنار تاكل نفسها ... إن لم تجد ما تاكله

فالمشبه : الحسود الذي يهمله المحسود ولا يلقي لأمر الحسد بالآ مما يزداد به ما انطوي عليه نفس الحاسد من غل وحقد فيتضاعف غيظه بما يورده مورد الضرر والهلاك ، والمشبه به: حال النار لاتمد بما يديم اشتعالها فتفنى وتزول وتصير رمادا ، والوجه : حال الشيء يفتقد أسباب بقائه فيهلك .

ومن ذلك قول صالح ابن عبد القدوس :

وإن من أدبته في الصبا ... كالعود يسقي الماء في غرسه
حتى تراه مورقا نضرا ... بعد الذي أبصرت من يبسه

المشبه : حال الصبي يتعهد بالرعاية في صباه ، المشبه به حال عود النبات يتعهده صاحبه منذ غرسه بالسقي والرعاية بما يصلح حاله ، وجه الشبه حال الشيء يثمر ويؤتي الغرض منه لتعهده بأسباب ذلك ، وتلحظ أن التشبيه من باب مركب الطرفين والوجه ، كما تلحظ أيضا حاجة الوجه إلي تأول .

. . . .

المجاز المرسل

من المعلوم أن الكلام المستعمل نوعان ، فمنه ما استعمل فيه اللفظ في أصل معناه الموضوع له في اللغة ، أو في العرف ، ويسمى اللفظ حينئذ حقيقة ، ومنه ما يستعمل فيه اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد والقرينة دالة على المراد ، ويسمى اللفظ حينئذ مجازا .

ومعلوم كذلك أن المجاز على نوعين ، فإن كان التجوز في اللفظ باعتبار الإسناد فهو ما يعرف بالمجاز العقلي أو الحكمي ، أو مجاز الإسناد ، وأما إن كان التجوز في ذات اللفظ فهذا هو المجاز اللغوي ، ثم إن كانت العلاقة المصححة لاستعماله قائمة على أمر المشابهة بين المعنى الأصلي للفظ والمعنى المستعمل له ، فهذا ما يعرف عند أهل البيان بالاستعارة ، وأما إذا كانت المناسبة قائمة على اعتبار آخر غير المشابهة ، فهذا هو المجاز المرسل .

وعلى ذلك فمن الميسور أن يقال تعريفا للمجاز المرسل : هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

وفي وصفهم هذا المجاز بالمرسل إشارة إلى تميزه عن قسيمه في المجاز وهو الاستعارة ، فإن هذا النوع غير مقيد بعلاقة معينة تسوغ الاستعمال معه ، على خلاف الاستعارة فهي مقيدة بعلاقة خاصة ، وهي المشابهة .

والعلاقات المصححة لهذا النوع من التجوز عديدة ومختلفة ، إلى حيث يصبح تتبعها غير ميسور ، بل ربما أدى إلى شيء من التكلف فقد أوصلها بعض أهل العلم إلى أكثر من مائة وعشرين علاقة ، وإذا كان لا يخفى أن كثيرا مما عدوه يمكن إرجاع بعضه إلى غيره ، فإن كثيرا من علاقات هذا المجاز متداخلة ،

وعلى كل حال فسوف نقتصر فى هذا المقام على ما هو الأهم والأكثر استعمالا خاصة فى الكتاب الكريم إذ الفائدة به أتم دون ريب ، كما أن معه من الدقائق ما ينبغى التنبيه عليه ، والإشارة إليه .

السببية :

وتتحقق هذه العلاقة بأن ترى اللفظ المعبر به هو سبب المعنى المراد ، ترمى بذلك إلى غرض ومغزى .

وإيقاع السبب على المسبب وارد فى الكتاب العزيز كثيرا ومنه قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ، وقوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ، سمى الجزاء الذى هو المسبب سيئة واعتداء ، مع أن الرد على السيئة بمثلها ليس سيئة ، كما أن الرد على الاعتداء ليس فى الحقيقة اعتداء ، وإنما هو دفاع مشروع، إذ فيه مقاومة لباطل ، غير أن إيثار التعبير هنا بالسيئة فى الآية الكريمة الأولى ، والاعتداء فى الثانية يفيد معنى الحث على العفو والمسامحة وتربية النفوس المؤمنة على هذا الطبع الكريم ، وليس فى ذلك تضييع لكرامة ، ولا إهدار لحق ، فذلك مصون لأن هذا العفو ليس مبعثه ضعف أو استكانة ، بل هو استجابة لداعى الحق الذى وعد سبحانه بعظيم الثواب على ذلك لكونه من أمارات قوة النفوس ونبل الخلق ، فلفظ السيئة والاعتداء تشير إلى معنى التنفير من الاندفاع وراء داعى الانتقام فى ذات الوقت الذى ترمز فيه إلى معنى الصفح والعفو ، وفى تعقيب هذا اللفظ بكلمة المثلية ما يؤكد هذا المعنى إذ أنهما مما لا يتيسر ضبطها تماما حتى يسوغ الرد بالسيئة والاعتداء وإلا صار المسىء إليه والمعتدى عليه أولا آثما ، ومعتديا لتجاوزه حد المثلية المشروع .

ونحو هذا : (ومكروا ومكر الله) ، تجوز بلفظ (المكر) عن عقوبته لأنه سبب لها .

ومن ذلك قوله تعالى : (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) إنما جعلت المرأتان للتذكير إذا وقع الضلال لا ليقع الضلال ، فلما كان الضلال سببا للتذكير أقيم مقامه .

ومن علاقة السببية إطلاق اسم الكتاب على الحفظ ، أى المكتوب فإن الكتابة سبب له ، كقوله تعالى : (سنكتب ما قالوا) أى سنحفظه حتى نجازيهم عليه .

ومنه إطلاق اسم السمع على القبول ، كقوله تعالى : (ما كانوا يستطيعون السمع) ، أى ما كانوا يستطيعون قبول ذلك والعمل به ، لأن قبول الشيء مرتب على سماعه ومسبب عنه ، ويجوز أن يكون نفى السمع لابتغاء فائدته .

المسببية :

وذلك بأن يطلق لفظ المسبب مرادا به السبب كإطلاق لفظ النار مرادا بها ما كان سببا موصلا إليها والعياذ بالله ، فالكفر المراد بها فى قوله تعالى : (ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار) إذ أن قومه قد دعوه إلى الكفر لا إلى النار ، بدليل قوله تعالى : (تدعوننى لأكفر بالله) ، ولكن لما كان الكفر معاقبا عليه بالنار أقيم لفظها مقامه للدلالة على سوء مصير ما يدعونه إليه ، وفى ذلك أيضا إشارة إلى مآل هؤلاء لكونهم على هذا الكفر المجاز عليه بهذه النار .

ومن هذا أيضا قوله تعالى : (فاتقوا النار) ، أى فاتقوا العناد الذى أنتم عليه والمترتب عليه مصيركم إلى النار ، إنها مرتبة على حالهم من الجحود والعناد ، ونحو هذا ما هو سبب فى النار ، وفى التعبير هنا أيضا بلفظ النار التنبيه على سوء حالهم بإبراز ما يؤول إليه من سوء المصير ، عل فى ذلك زجرا لهم وترهيبا وترغيبا فى درء هذا المصير عن أنفسهم بترك ما هم متلبسون به من فساد عقيدة إلى الحق والإيمان الذى تكون به الوقاية لهم مما ينتظرهم من سوء العاقبة إن هم تخلوا عن ركب الإيمان .

ومما يجرى على هذا المعنى كذلك قوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ..) حيث أطلق تعالى على ما يأكل من أموال اليتامى أنه أكل نار لأن هذا مما يستلزم العقاب عليه بالنار ، فالتعبير

إذ نبالمسبب مرادٌ به السبب . ولا يخفى ما يشعر به التعبير على هذا من مزيد الحث على صيانة مال هؤلاء اليتامى والمبالغة فى التنفير والتحذير من تناوله بغير حق ولغير مصلحة تعود على هذا المال تنمية له . لأن فى ذلك خيانة وغدر بمستضعفين، فالتعبير هنا فيه تصوير بشع لحال أمثال هؤلاء المتجاوزين فهم لا يأكلون بتلك الأموال طعاما يقيتهم ، أو يلذهم مذاقه . بل هم يدخلون به نارا فى أجسامهم . فواضح أن المراد فى الحقيقة ، والله أعلم . لا يخص الأكل على التعيين . وإنما ذلك يتناول كل سبيل ينفق فيه مال اليتيم . سواء يستوفى ذلك المأكل والمشرب والملبس والمركب إلى نحو هذا . مما يعد ظلما لمال اليتامى، ولكن لما كان المال يمثل أشد الضرورات التى ربما تذرع بها من بيده تلك الأموال كان التحذير بها أبلغ وأدل على غيرها من الأحوال الأخرى لكونها من باب أولى . كما لا يخفى أن من وراء إيراد لفظ (نارا) على صيغة التنكير معنى التهويل . وهذا ما يلائم حال هؤلاء إذ هم قد اعتادوا هذا الأمر . فهو يقع منهم وقتا بعد وقت ومع يتيم بعد يتيم يوحى بهذا صيغة المضارع (يأكلون) وجمع المال فى قوله تعالى : (أموال اليتامى) . فهذا دأب لهم وطبع يتجدد ، فليس خاصا بحالة واحدة تطرأ . بل صار ذلك الأمر عرفا فيهم وعادة .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا) . المراد والله أعلم : الشيء الذى ينكح به . من مهر ونفقة وما لابد للمتزوج منه . فلفظ (نكاحا) المذكور به معبر هنا عن ما هو السبب فى حصوله . ولعل التعبير به لكونه الغاية التى يكون بها العفاف المخاطب به من لا يتيسر لهم سهل التحصل بالزواج كما أن التعبير هنا أوجز . وذلك لتعدد واختلاف الأسباب التى يقع بها النكاح فقد حصل إذ ن بهذا اللفظ الوفاء بالمعنى والغرض مع الإيجاز فى التعبير .

ومن هذا أيضا قوله تعالى : (والرجز فاهجر) قالوا فى التفسير إن المعنى على ترك عبادة الأصنام والأوثان فعبر هنا بالرجز الذى هو العذاب لكونه مسبب عن تلك العبادة الآثمة . وفى هذا تهويل وترهيب بتلك العبادة الفاسدة حتى

لكأنها ذات العذاب بل والعذاب مستغرق بها ، فهي والعذاب سواء يدل على هذا اقتران لفظ الرجز بأل ، كما هو استلزام هذا الإفك والوهم في العبادة للعذاب فهو مسبب عنها قطعا .

علاقة الكلية :

وذلك بأن يطلق اللفظ الدال على معنى الكل مرادا به جزء معناه كقوله تعالى في وصف حال المنافقين وعدم استجابتهم لمقتضيات الإيمان الحق ، وانتفاعهم به ، وإنما فرارهم عنه : (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ..) أي : أناملهم ، والحكمة البيانية للتعبير باسم الكل عن جزئه هنا الإشارة إلى معنى المبالغة في تصوير مدى ما ألم بهم من فزع وخوف بحيث بدوا وكأنهم يجتهدون في إدخال أصابعهم لا أناملهم فقط لو تيسر لهم ذلك فرارا من الشدة على غير المعتاد .

ونظير هذا ما في قوله تعالى في شأن قصة نوح عليه السلام ودعوة قومه إلى الإيمان بكل سبيل وفي كل زمان وإن لم يزدهم ذلك سوى الاستكبار والإعراض يقول سبحانه وتعالى في ذلك : (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) ، فهؤلاء المعاندون لم يضعوا أصابعهم بتمامها في آذانهم : لعدم إمكان ذلك ، وإنما الذي جعلوه في آذانهم : الأنامل ، فالتعبير إذن بالأصابع من باب التجوز بالكل المراد به الجزء والحال الخاص بهؤلاء المستكبرين يستدعي المبالغة في تصوير ما كان عليه أمر إعراضهم وتوليهم عن سماع دعوة الحق وبلاغ رسولهم نوح عليه السلام به فمع طول مكثه فيهم وطول زمان دعوته إياهم وسلكه معهم كل طريق وإلحاحه عليهم في أمر الدعوة وتكرر ذلك منه في كل حين إلا أنهم قد قابلوا كل هذا بما ينبئ عن عدم الاكتراث وبالغ الإعراض ، والتعبير بجعل أصابعهم في آذانهم تصوير بديع لمدى ما كانوا عليه حين يواجهون بالدعوة الحقة ونبذ ما هم عليه من كفر ، ولمزيد الدلالة على تلك الحال المتأبية عن سماع النصح الأمين ورد العطف بقوله تعالى : (واستغشوا ثيابهم) ، ففي هذا التركيب إشارة إلى مدى استخفافهم

بأمر الدعوة وعدم إلقاء أى بال للداعى ، وإنما يقع منهم ما ينبئ عن تمام الإعــراض ولهذا أيضا ورد التعقيب بما هو صريح فى تأكيد استمساكهم بباطلهم وانعــدام إمكان انتهائهم عن ما هم فيه من ضلال بحال ، وهذا ما يفيده قولــه تعالــى : (وأصروا واستكبروا استكبارا) .

ومما يجرى على هذه العلاقة أيضا قوله سبحانه وتعالى : (.... فمن شهـد منكم الشهر فليصمه ...) ، وقد استشكل المعنى عند البعض من حيث إن الجـزاء إنما يكون بعد تمام الشرط والجزاء هنا وهو التكليف بالصوم متوقف على الشـرط هنا الذى هو شهود الشهر ، وهذا غير مراد قطعا ، بل هو محال ، والجواب على هذا ميسور ، إذ الكـلام هنا جار على طريق المجاز ، فالتعبير بالشهر مرادا بـه أوله أو أولى لياليه من باب استعمال لفظ الكل مرادا به بعض معناه وإيراد الجزء باسم الكل مجاز مشتهر بما ينفــى كل إشكال .

ومن ذلك كذلك قوله تعالى فى شأن بيان حد من اجترأ على أحد حـدود الله فسرق : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من اللـــه ..) ذكروا فى الفقه أن المقصود بقطع اليد : البعض الذى هو الرسغ .

استعمال الجزء مرادا به الكــل :

وذلك بأن يستعمل اللفظ الدال على الجزء مع إرادة الكل على خلاف مـــا سبق ، وهذا نظير قوله تعالى : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) أى: ذات الله عز وجل ، ونظيره قوله تعالى أيضا (كل شئ هالك إلا وجهه) أى: ذاتـــه سبحانه وتعالى ، فالكل فان سوى الله ، عز وجل ، وهو سبحانه وتعالى وحــده الباقى ، وقوله تعالى : (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ...) أى: ذواتكـــم لكن لما كان الوجه محل المواجهة ، به تكون عبر عن الذات المتوجهة .

وأما قوله سبحانه وتعالى : (وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة) فقد ذكـــر صاحب البرهان أن هذا يجرى على ما نحن بسبيل الحديث عنه أيضا ، فقد عبر

بالوجوه والمراد الأجساد ،فالتجوز إذن بلفظ الجزء المعبر به عن الكل المـــراد ، لأن العمل والنصب من أوصاف الأجساد لا الوجوه .

ومع إمكان الحمل على هذا إلا أنه لا مانع ـ والله أعلم ـ بحقيقة مـــراده ـ أن يكون التعبير بالوجوه على ظاهره باعتبار أن الوجه المحل الذى تبدو من خلاله أمارات النصب وعلامات الخشوع فى الـذل عما سواه من الأعضاء الموهوبة للإنسان تنهض بأعباء العمل ، ثم يكون الوجه المعبر عن آثار ذلك كما أنه الكاشف عمـــا عليه سوء حال هؤلاء وما هم متلبسون به من ذل وهوان يبدو ذلك منهم فـــى وجوههم الخاشعة من الذل والمهانة والهموم ، وهذا ما وراء تخصيص الوجـــه بالذكر هنـــــا .

وأما قوله تعالى فى وصف حال أهل الإيمان والنعيم من بعد بيان حال أهل الكفر والجحيم : (وجوه يومئذ ناعمة) فقد فسرت الوجوه هنا أيضا بما يفيـــد معنى الكل فيكون التعبير هنا من باب المجاز المرسل كذلك ، كما أوردوا احتمـــال أن تكون الوجوه على ظاهرها ، وقد وصف البعض بوصف الكل لما أن آثار التنعـــم أكثر ما تبدو على الوجـــوه التى هى شارحة لما عليه حال البدن ، كما ينبئ عـــن هذا قوله تعالى : (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) ، وكذا قوله تعالـــى : (وجوه يومئذٍ ناضرة ٠٠) فالنضرة أكثر ما يكشف عنها الوجه خاصة لكونه المرئى ، أو لكونه به الرؤيـــة الموعود بها آل اليقين من قبله سبحانه وتعالى مزيد فضـــل وتكريم بالنظر إلى وجهه الكريم ، أكرمنا الله سبحانه وتعالى وجعلنا ممن ينعمـــون بالنظر إلى وجهه الكريم فضلا منه تعالى علينا ومنة .

هذا وقد ذكر أن الوجوه فى قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة) مراد بهـــا كل ما تكون به المواجهة ، لا خصوص الوجه .

هذا وينبغى الإشارة هنا إلى أنه وقع خلاف حول تأويل الوجه المضاف إلـــى الله تعالى فى مواضع من القرآن الكريم ، فذكروا أن ذلك يحمل على المجاز المعـــبر فيه بالجزء عن الكل ، فالمراد ـ والله أعلم ـ بالوجه أنه راجع الى الوجود ، والعبارة

عنه بالوجه مجاز ، إذ هو أظهر الأعضاء في المشاهدة وأجلها قدرا ، واستصوب صاحب البرهان في علوم القرآن : أنها صفة ثابتة بالسمع ، زائدة على ما توجبه العقول من صفات الله تعالى ، وعلى هذا فلا تجوز. والحق أن إيضاح ما ذكر وما قيل وما يمكن أن يقال أيضا مما لا يدخل في غرضنا لأن المقام لا يتسع ولأن هذا مما له اتصال وتعلق بعلم الكلام .

وأما قوله سبحانه وتعالى : (فأينما تولوا فثم وجه الله) فالمراد الجهة التي وجهنا إليها في القبلة ، كما قيل : المراد به الجاه ، أي فثم جلال الله وعظمته .

وقوله سبحانه وتعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) فالتعبير بالأيدي مجاز عن ذواتهم ، لكن لما كانت الأيدي بحكم الطبع والعادة آلة الكسب ، والجارحة التي بها تقع الأعمال غالبا ، كانت تجوز بها عن سائر الجسد ، وهذا تجوز وارد ومشتهر في اللسان ، والقرآن الكريم والحديث الشريف ، كما هو جار في كلام الفصحاء .

ونظير هذا ما عليه قوله سبحانه وتعالى : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ، فالمعنى كما هو المتبادر لا يخص الأيدي بالأيدي عن ما فيه ضرر يلحقها ، بل يعم الأمر سائر أجزاء الجسد ، ويتسع لجملته لكن لما كانت الأيدي الجارحة التي هي مظنة بإيقاع الضرر ولحوقه بصاحبها لكونها آلة البطش فبسببها يلحق الضرر أو الهلاك بصاحبها ، إن هو لم يحسن تدبر الأمر واستشراف العواقب .

ويذكرون أن من هذا المجاز قوله سبحانه وتعالى : (واضربوا منهم كل بنان) فقالوا إن ذكر البنان هنا مجاز عن الأيدي والأرجل ، فهو من قبيل التعبير عن الكل باسم جزئه ، وقد يبدو الغرض من وراء إيثار ذكر البنان -باعتبار أن القصد بالأمر أهل الإيمان المجاهدين هنا- منع أهل الكفر والشرك من مواصلة حربهم وقتالهم ، بإيقاع الأذى بهم المعوق لدوامهم على الحرب والحائل بينهم وبينها ، فإن لم ينتهوا لأهل الإيمان الخلاص من الباغين أصلا وقطع دابرهم ، وجز أعناقهم كما هو مقتضى التكليف السابق بقوله سبحانه وتعالى فليكن بفعل ما

يمنع أولئك الباقين من التصدى والمحاربة ، ولأن البنان وهو الأصابع لازمة لهد كل محارب إذ بها يمسك سلاحه ويحكم آلته ، كما أن الأصابع من الأرجل لا غنى عنها فى زمان الحرب كى يتيسر لأصحابها الكر والفر ، وبفقد هذين يصير الأمر عسيرا فى أمر الحرب ، فالتكليف الحنيف هنا دعوة للمجاهدين لأن تشتد عزائمهم فينهضوا لتحقيق النصر على أعداء الدين ، وذلك بالقضاء عليهم ، وإلحاق ما يعوق ويحول بينهم وبين الباقين ممن لم ينتهى القضاء عليهم ، والتجوز هنا عكس ما كان عليه الأمر فى قوله تعالى : (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) .

ومن مشتهر هذا الضرب قوله سبحانه وتعالى : (فتحرير رقبة) ، إذ المعنى والله أعلم ـ فتحرير عبد أو أمة .

ومما يدخل فى هذا الضرب كذلك قوله سبحانه وتعالى : (سنسمه على الخرطوم) قالوا : إن التعبير بالأنف يراد به الوجه ، وإن ذكر فى الآثار ما يفيد أخذ التعبير على ظاهره ، حيث يروى أن هذا المتوعد وكان أحد أركان العناد وعمد الكفر ، قد وسم أنفه فى إحدى الغزوات ، فتحقق ذلك ما توعد به من قبله تعالى بهذا النظم المعجز ، وعلى هذا يبدو نوع إعجاز ، حيث توعد بما يكون ويقع فى المستقبل القريب المدلول عليه بحرف السين المقترنة بالفعل المتوعد به ، ووقع هذا المتوعد به ، على مشهد ممن سمعوا هذا عند نزوله ، فازداد بذلك يقين أهل الإيمان حيث وقع الفعل المتوعد به على وفق ما أخبر تعالى ، فهو سبحانه وتعالى المنجز لما وعد وتوعد لا محال .

ومن مجاز التعبير بالجزء عن الكل قوله سبحانه وتعالى : (ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) فقد أضيف الاسم إلى القلب مع أنه يعم صاحبه ، فالتعبير بالقلب هنا إذن مجاز ، وتخصيص القلب ، بإضافة الإثم إليه ، من حيث إن القلب محل الاعتقاد ، وكونه محرك الانفعالات كما اشتهر أثره على توجيه فعل صاحبه من بر أو إثم ، كما اشتهر التجوز بنسبة الكتابة إلى اليد من حيث إنها تكون بها ، وذلك فى قوله سبحانه وتعالى : (فويل لهم مما

كتبت أيديهم) باعتبار أن اليد هي المباشرة لأمر الكتابة ، وإن كانت الجملة كلها كاتبة ، ولهذا أعقب تعالى بقوله سبحانه : (وويل لهم مما يكسبون) .

كما ذكروا أن من هذا المجاز قوله سبحانه وتعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) ، قيل : إن المعنى على غض الأبصار مع أن التعبير بمن يفيد غض البعض ، وإن ذكر عن ابن علي الفارسي أن التركيب على صريحه لأن الغرض غض البصر عن خصوصها يحرم فلا يتناول النظر المباح لنحو زوجه أو محرم وكذا قوله تعالى : (يا أيها المزمل . قم الليل ..) فالتعبير بالقيام هنا مجاز عن الصلاة ، أي صل في الليل ، لأن القيام بعض الصلاة ، وكذا قوله تعالى : (..... وقرآن الفجر ..) أي: صلاة الفجر .

قالوا ومن هذا أيضا (المسجد الحرام) والمراد جميع الحرم .

ويدخل في هذا قوله سبحانه وتعالى : (واركعوا مع الراكعين) أي: المصلين ، فالتعبير بالركوع هنا مجاز عن الصلاة ، لكونه ركنا لا تتم في أصل التكاليف بدونه سوى من رخص له لموجب .

قالوا ومنه قوله تعالى : (... قل أذن خير) ، ذكر عن أبي علي الفارسي جعل تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – أذنا لأجل إصغائه ، فاللفظ على هذا من باب التعبير بالجزء عن الكل ، وذلك أنه لما كانت الأذن آلة السماع عبر بها عن صاحبها مبالغة في سماعه حتى لكأنه – صلى الله عليه وسلم – قد صار بتمامه لمزيد إصغائه لأمر الوحي ومزيد حرصه على تلقيه ووعيه أذنا واعية ، وهي أذن خير لأنها تتلقى عن الله تعالى مراده من الخلق تحفظه وتعيه لتبلغه ، وذلك التعبير وارد في سياق الأمر منه تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – بالرد على بعض ما كان يقول به أهل العناد حيث قالوا في حقه صلى الله عليه وسلم – إنه أذن ، يقول سبحانه وتعالى : (ويقولون هو أذن) يريدون وصفه – صلى الله عليه وسلم – أنه سماع – يريدون بذلك الغمز فكان الأمر الإلهي بالجواب عنهم نعم هو أذن لكن أذن خير ، لا كما تتقولون وتقصدون ، ولوقوع (أذن خير)

فى مصاحبة لفظ " أذن " قبلها ذكر البيانيون هذا من شواهد ما يعرف بالمشاكلة .

وجعل الإمام فخر الدين الرازى أحد أئمة التفسير وصاحب مفاتيح الغيب من هذا الضرب قوله سبحانه وتعالى : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) المراد به جميع الحرم ، لا صفة الكعبة فقط ، بدليل قوله : (أنا جعلنا حرما آمنا) ، وقوله : (هديا بالغ الكعبة) ، والمراد الحرم كله ، لأنه لا يذبح فى الكعبة ، قال : وكذلك : (المسجد الحرام) فى قوله : (فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ، والمراد منعهم من الحج وحضور مواضع النُسك .

وقد يطلق اسم الملزوم مرادا به لازمه ، أو العكس كما يستعمل لفظ المطلق مرادا به مقيدا ، أو العكس أيضا كما يرد الخاص مرادا به العام ، والعكس ، أو يطلق اسم الحالّ على محله ، أو المحل على ما هو حالّ به ، إلى غير ذلك من العلاقات التى لا يتسع هذا المقام للوفاء بإيرادها على جهة التفصيل والتوضيح لذلك نكتفى هنا بالإشارة إلى بعضها ، من خلال بعض الشواهد . فمن إطلاق اسم الملزوم على اللازم قوله سبحانه وتعالى : (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) أى أنزلنا برهانا يستدلون به ، وهو يدلهم ، سمى الدلالة (كلاما) لأنها من لوازم الكلام .

ومن إطلاق الخاص على العام قوله تعالى : (هم العدو فاحذرهم) أطلق لفظ العدو مفردا والمراد الأعداء ، لكن لما جمعت العداوة بين هؤلاء فى الغرض حسُن الحديث عنها بلفظ المفرد إشارة إلى هذا المعنى .

وأما قوله سبحانه وتعالى : (ويستغفرون لمن فى الأرض) فمن استعمال العام فى الخاص ، أى : للمؤمنين ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : (ويستغفرون للذين آمنوا) وخير تفسير للقرآن ما كان بالقرآن الكريم ذاته ، كما هو معلوم ومقرر .

++++++++++

بسم الله الرحمن الرحيم

((الكناية))

والكناية فى عرف أهل البلاغة : لفظ أريد به لازم معناه ، مع جواز إرادة المعنى الأصلى معه . كقولك : واجهت فلانا بالحق فاحمر وجهه ، تريد بحمرة الوجه ما أصابه من خجل عند مواجهته ، وكقولك أيضا : قابلته فلوى عنقه تكنى بلى العنق عن إعراضه عنك ، وكقول العرب فى وصف حال المترفة من النساء : امرأة نؤوم الضحى ، يريدون أنها لكونها مترفة لا تعجل باليقظة لأن لها من يقوم على شئون بيتها .

ففى كل ما ذكر أطلق لفظ الملزوم ، وأريد به لازمه ، لأن حمرة الوجه عند المواجهة بالحق ، تستلزم عادة الخجل وتدل عليه ، ولى العنق عند المقابلة علامة الإعراض ودلالة عليه ، وكذلك امتداد النوم إلى وقت الضحى ، يشير إلى معنى الترف والراحة ويدل عليهما ، غير أنه لا يمتنع من إرادة اللازم أن يكون الملزوم حاصلا غير مراد ، كحصول الحمرة حقيقة فى شأن من خجل ، وحدوث لى العنق ممن أعرض ، وكون المرأة المترفة لا تفارق مرقدها إلا بعد الضحى . وذلك أن وقت الضحى وقت سعى نساء العرب فى أمر المعاش وكفاية أسبابه وتحصيل ما يحتاج إليه فى تهيئة المتناولات وتدبير إصلاحها ، فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها فى السعى لذلك

والكناية فى الأصل تعنى الخفاء والستر .

ولا بد فى كل كناية من علاقة وقرينة .

والعلاقة وهى المناسبة بين معنى اللفظ المستعمل والمراد به وهى هنا العلاقة بين الملزوم واللازم ، وهو المعنى المكنى عن المراد . وهذا اللازم قد يكون منشأه عادة مشتهرة ، أو عرف جار أو اختصاص أمر معين ، أو كان اللزوم من جهة العقل ونحو هذا ، فقد جرت عادة العرب على إيقاد النار

لإرشاد الضيوف ، كما هى عادة جارية عند كرمائهم ، فهى من مظاهر الجود عندهم ، فاستعمال إيقاد النار يلزم عنه بحسب هذا العرف لديهم معنى الكرم ، فصار هذا اللفظ يستعمل للدلالة على هذا المراد .

وأما قرينة الكناية فتعين المراد للمتكلم ، ولا تنفى إرادة المعنى الأصلى معه ليكون تابعا للمعنى المراد ، ولا يكون مقصدا بالإفادة ، كقرينة المواجهة بالحق فى المثال الذى سبق ، فإنها تعين المعنى المراد وهو الخجل دون أن يمتنع المعنى الأصلى على ما سبق إيضاحه ، وهذا هو أصل الفرق بين الكناية والمجاز ، إذ القرينة فى المجاز صارفة عن إرادة المعنى الأصلى ومعينة للمعنى المراد ، ولهذا إعدها كثير من البلاغيين واسطة بين الحقيقة والمجاز ، وإن ذكر أنها معدودة فى أقسام الحقيقة كما قيل ، بل إنها تدخل فى المجاز ، وهذا مما لا يدخل فى غرضنا إيضاحه هنا .

أقسام الكناية :

والكناية تنقسم باعتبار المعنى المراد بها إلى ثلاثة أقسام :

لأن المعنى المراد — وهو المكنى عنه إما أن يكون ذاتا مختصة بالصفة المذكورة فى اللفظ .. فتكون كناية عن موصوف ، وإما أن يكون صفة لازمة أخرى ، هى المذكورة فى اللفظ فتكون كناية عن صفة ، وإما أن يكون نسبة بالإثبات أو النفى حاصلة بين شيئين ، فتكون كناية عن نسبة .

الكناية عن صفة :

وفى سائر ما مر بك من أمثلة تلحظ أن المعنى المكنى عنه من قبيل الصفات ، كوصف (الخجل) المكنى عنه بحمرة الوجه ، والترف والنعيم المكنى عنه بكثرة نوم الضحى وهكذا .

الكناية عن الموصوف :

والكناية عن الموصوف هي الكناية التي يكون لفظها المكنى به ، دالا على صفة ، لها اختصاص ظاهر بموصوف معين ، ويكون المقصود من ذكرها الدلالة بها عليه كقولهم في الكناية عن الخمر ... أم المصائب وذلك لما تجلبه على شاربها والمتعامل بها من وجوه الضرر وأنواع المصائب والمفاسد ، وكذا قولهم في الكناية عن السفينة : لبنة البحر لكونها ملازمة له .

وفي الكناية عن القلب يقولون مجمع الأضغان .

الكناية عن النسبة :

والكناية عن النسبة هي الكناية التي يكون المقصود بها إثبات صفة لموصوف معين ، أو نفيها عنه ... وسبيلها ، أن يترك المتكلم إثبات هذه الصفة لموصوفها ، ويثبتها لشيء يتصل به ، وله به ارتباط وثيق ، ليكون إثباتها لما يتصل به ، دليلا على ثبوتها لموصوفها الحقيقي .. كقولك ، وأنت تريد إثبات سمة العلم لشخص معين : العلم بين ثيابك . تاركا اللفظ الصريح الدال على إثبات العلم له ، إلى اللفظ الدال على وجوده بين ثيابه ، لتؤكد بذلك وجوده فيه .

بلاغة الكناية :

والمهم أن الكناية بصورها المختلفة تؤدي دورا مهما في التعبير عن المعاني وإبرازها وتصويرها على نحو أبلغ وأنسب للحال والمقام ، فمن طبيعتها أنها تبرز وتجسد المعاني القائمة بالنفس في معرض حسن ، وترسم تلك المعاني في أشكال وصور تراها العين فلا تشك النفس في وقوعها ، ولا تماري في حدوثها فيكون ذلك أدعى إلى قبولها وآكد لديها سواء كان ذلك الغرض المراد مدحا أو هجاء أم غير ذلك من سائر المعاني والأغراض التي يسعى المتكلمون إلى التعبير عنها وصوغها في قوالب من التعبير تكون أحفظ لتلك المعاني والأغراض وأصدق ناقل وواسطة بين المتكلم والمخاطب .

أغراض الكناية :

وتتعدد الأغراض الداعية لأهل الكلام البليغ إلى إيثار هذا الطريق إذ قد يكون المعنى المراد العبارة عنه من ذلك القبيل الذى لا يحسن بحكم الطبع السليم والعرف الحسن التصريح به لأنه متعلق بأمر من تلك الشئون التى يوقع التصريح بالمراد معها فى حرج لكونه مما ينبغى أن يصان اللسان عن ذكره أو مما ينبغى أن يحفظ سمع المخاطب عنه لكونه من خواص الإنسان وسرائر حياته التى يكون الجهر بها من الفحش ، أو نوعا من استثارة الغرائز الإنسانية والتى ينبغى أن يكون التعبير عنها بلطف وأن تمس مسا رفيقا يوفى لكل من المعنى والمخاطب حقه فى ذات الوقت ، شأن التعبير بالكناية تحريكا للفكر وحثا له على التأمل فى المعنى المصرح به كى يصل من بعد ذلك إلى المراد ، ومن الثابت أن ما يتوصل إليه بعد فكر وما يدرك بعد تأمل مايكون أرسخ فى النفس وآكد لقبولها إياه .

وبعد هذا الإجمال نشير إلى أهم الأغراض لهذا الطريق البيانى بشئ من التفصيل والإيضاح .

فمن تلك الأغراض : التنبيه على عظم القدرة لله تعالى على نحو ما فى قوله تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) ، فالمعنى المكنى عن النفس الواحدة هو آدم عليه السلام ، لكن فى ترك التصريح باسمه والدلالة عليه بلفظ النفس الواحدة دلالة على غاية قدرة الله تعالى فى شأن الخلق .

ومن هذه الأغراض أيضا ترك التصريح بلفظ المراد والدلالة عليه بلفظ آخر استنادا على انفهام المقصود وفطنة المخاطب نظير قوله تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله) فالمراد الكناية عن زيد بن حارثة — رضى الله عنه — وإنما ترك لفظه ثقة بفهم المخاطبين ، ولأن فى مجئ الكلام على هذا النحو إثباتا للمراد على جهة التعميم إذ نفى الأبوة عنه — صلى الله عليه وسلم — لغير ولده مقصودا به خصوص زيد بذاته ، والمراد أن

تلك قضية عامة تجرى مجرى التشريع والحكم الذى يعم المسلمين جميعا وإنما كان حاله - صلى الله عليه وسلم - مع زيد مناسبة اتخذت لبناء هذا الحكم وتشريعه على ما أوضحته صريحا آيات سابقة فى سورة الأحزاب .

ويجرى على هذا الغرض كذلك ما فى قوله تعالى : (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ...) الآيات ، فإن هذه تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - والمعنى : لا تظن أنك مقصر فى إنذارهم ، فإنا نحن المانعون لهم من الإيمان ، فقد جعلناهم حطبا للنار ليقوى التذاذ المؤمن بالنعيم ، كما لا تتبين لذة الصحيح إلا عند رؤية المريض .

ومن أسباب الكناية ودواعيها أيضا ، التعبير عن المراد بما هو ألطف وأجمل وأنسب بحال المخاطبين ، ومن هذا قوله تعالى فى خطاب أهل الإيمان وتحريضهم على الثبات فى الجهاد وتحذيرهم من سوء عاقبة التولى والإدبار يوم الزحف : (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله) كنى بالتحيز عن الهزيمة .

ومن أغراض التعبير بطريق الكناية أيضا كون ما يدل على المعنى صريحا مما يفحش ذكره أو يستهجن التصريح به لكونه مما ينبو عنه الطبع السوى والفطرة السليمة ، فحينئذ يعتمد المتكلم طريق الكناية للتعبير عن مراده قال سبحانه وتعالى فى سياق تعديد ما يحمد من خلال أهل الإيمان : (وإذا مروا باللغو مروا كراما) أى كنوا عن لفظه ولم يوردوه على صيغته فمن شأن الإيمان أن يحض أصحابه فى مقابل لغو العابثين ولهو المارقين الذين ليس عندهم ما يشغلهم مما هو نافع من قول أو عمل أو عبادة فيدعوهم ما هم فيه من فراغ إلى أمثال نوادى اللغو والفحش ، أما أهل الإيمان فليس لديهم من زمان يضيعونه فى مثل هذا ، حتى ولو كان ذلك على سبيل الرد والجواب على ما يسرون به ، وربما استثار نفوسهم إلى مقاومته أو مقابلته لكن كرم الطبع فيهم وسماحة الإيمان عندهم ووثوقهم من صدق وصواب حالهم وخطأ وفساد حال هؤلاء العابثين يدفعهم إلى عدم التعويل والمجاهرة

بسوء القول الذى يحاول أمثال هؤلاء اللاهثين جرهم إليه ذريعة للوثوب على الدين وأهله ، فانظر كيف كان التعبير بما عليه النظم الحكيم معبرا عن كل هذا مما أوضحناه وأكثر مما لا يتسع المجال لذكره .

وقد كثرت الكناية فى النظم الحكيم لهذا الغرض نظير قوله تعالى فى شأن الدلالة على الحد الذى لا ينبغى لمريد النكاح الاقتراب منه (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا) فشرع الله الحكيم العليم بسرائر النفوس وطبائع الناس ونوازعها ، لذا قضت حكمته تعالى بعدم التضييق والإعنات ، وإنما التيسير والاستجابة لدواعى النفس فى هذا الأمر لكن الإطار والحد الذى يصان معه العفاف وتصان معه الأعراض والحياء ، فلا بأس لمن عزم على الخطبة أن يلمح ولا إثم عليه فى أن يشير بما ينبئ عن قصده ومراده ، لكن ينبغى أن يبقى ذلك فى إطار النبل والعفاف ، فلا يتجرأ أو يتجرأ فى ذلك الأمر ليقع فى ظاهر الإثم وكبير المعصية ، ولذا كان الاستدراك تعقيبا على ما أبيح للخاطب بقوله تعالى : (ولكن لا تواعدوهن سرا) ، فقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المراد بهذا الاستدراك النهى عن الجماع فكنى عنه بالسر وفيه لطيفة أخرى ، كما يذكر صاحب البرهان لأن الجماع يكون من الآدميين فى السر غالبا أو الشأن فيه ذلك سوى من شذ فحاكى غير الناس ، قالوا : ولا يسره سوى الآدميين غير الغراب ويذكرون فى ذلك قصة أحد الأدباء حين أسر إلى الحاتمى كلاما فقال : لكن عندك أخفى من سفاد الغراب ، ومن الدال فى كلام الألثغ ، فقال : نعم يا سيدنا ، ومن ليلة القدر ، وعلم الغيب .

ومن عرف القرآن الكريم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والرفث والدخول ، والنكاح ، ونحوهن ، قال تعالى : (فالآن باشروهن) فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين ، وقوله تعالى : (أو لامستم النساء) إذ لا يخلو الجماع عن الملامسة ، وقوله فى الكناية عنهن : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وهى الاختلاط والجماع ، وكنى عنهن فى موضع آخر بقوله : (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) .

ثم انظر إلى هذه الكناية اللطيفة فى التعبير عن الجماع فى قوله تعالى : فلما تغشاها حملت حملا خفيفا) .

ومن هذا الباب أيضا فى شأن مريم وابنها عيسى عليهما السلام قوله تعالى : (كانا يأكلان الطعام) فكنى بأكل الطعام عن البول والغائط ، لأنهما منه مسببان ، إذ لابد للأكل منهما ، لكن استقبح التخاطب بذكر الغائط ، فكنى بالأكل عنه .

وقد يثار هنا السؤال عن الحكمة فى ورود التصريح بلفظ الغائط فى موضع آخر وذلك قوله تعالى : (أو جاء أحد منكم من الغائط) والجواب على هذا أن يقال : الخطاب هنا وارد على عرف العرب وما يألفون ، والمراد إعلامهم بالأحكام ، فاقتضى هذا التصريح به ، على أن الغائط أيضا كناية عن النجو ، وإنما هو فى الأصل : اسم للمكان المنخفض من الأرض ، وكانوا إذا أرادوا قضاء حاجتهم أبعدوا عن العيون إلى منخفض من الأرض ، فسمى به لذلك ، ولكنه كثر استعماله فى كلامهم ، فصار بمنزلة التصريح .

وما ذكر من اعتبار أكل الطعام فى الآية الكريمة , مرادا به الكناية عن الغائط هو المشهور والمذكور عند أكثر أهل العلم ، غير أن أمثال الجاحظ ينكرون هذا الحمل ويرون اللفظ فى أكل الطعام على حقيقة معناه ، إذ يكفى فى الدلالة على عدم الإلهية نفس أكل الطعام ، لأن الإله الحق هو الذى لايحتاج إلى شئ من قبيل ما يأكل ، ولأنه كما لا يجوز المعبود محدثا ، كذلك لا يجوز أن يكون طاعما ، وأرى أن هذا وجه محتمل ما دام الحمل على الظاهر يفيد الغرض المراد ، وإن استحسنوا التوجيه على الكناية ، لأن الكناية عن الغائط فيه تشنيع وبشاعة على من اتخذهما إلهين ، إذ هو يدل على مدى فساد هذا المعتقد .

فأما قوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) فهو على حقيقته ، لأنه الأنسب بالمعنى والغرض فى هذا الموقع .

قالوا : وفى هذه الآية الكريمة : فضل العالم المتصدى للخلق على الزاهد المنقطع ، فإن الرسل عليهم السلام كالطبيب ، والطبيب يكون عند المرضى يزاول علاج ما بهم من علل وأمراض تصيب الجسد والبدن ، وكذلك حال رسل الله تعالى وأنبيائه ، ثم المصلحون من بعدهم ، مهمتهم مزاولة علاج النفوس ، وما يصيبها من علل وفساد فى المعتقد والسلوك ، فهم دائما بين الناس يعايشون أحوالهم ويقومون مساوئ مسالكهم ويبينون الطريق الأمثل ويعلمونهم طريق الحق والرشاد فى كل شىء .

ومن لطيف كنايات الكتاب العزيز ، ما ورد فى التعبير عن الفرج بالجلود فى قوله تعالى (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ...) أى : لفروجهم ، فكنى عنها بالجلود على ما يذكره بعض أهل التفسير والعلم ، وكما يورده احتمالا كثير من المفسرين وأهل العلم كذلك .

فإن قيل قد قال الله تعالى : (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) فصرح بلفظ الفرج هنا ، وأيضا فى قوله تعالى : (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) .

يذكر صاحب البرهان الجواب على هذا بخطئ حمل المعنى على الفرج الحقيقى ، وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها ، فهو كناية عن فرج القميص ، أى لم يعلق ثوبها ريبة ، فهى طاهرة الأثواب ، وفروج القميص أربعة : الكمان والأعلى والأسفل ، فإن القرآن الكريم أنزه معنى ، وألطف إشارة وأملح عبارة ، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضيف القدس إلى القدوس ، ونزهت القانتة المطهرة عن الظن بالسوء .

ويؤيد هذا التوجيه ورود الضمير المجرور على التذكير مرة وعلى التأنيث فى المرة الأخرى ، كما هو موقع التحريم .

وعلى كل حال فالتعبير هنا لا يخلو عن كناية .

ومنه قوله تعالى : (الخبيثات للخبيثين) يريد الزناة . وقوله تعالى : (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) فإنه كناية عن الزنا . وقيل : أراد طرح الولد على زوجها من غيره ، لأن بطنها بين يديها ورجليها وقت الحمل .

هذا وفي الكتاب العزيز كنايات كثيرة لا تخلو من معنى دقيق وإشارة حسنة ورمز لطيف وقد اكتفينا بما أوردناه عسى أن يكون هاديا لإدراك ما تنطوي عليه أمثال هذه الأساليب من أسرار وبيان ، وهنا نورد بعضا من بليغ الكنايات في السنة المطهرة ، وهذا الطريق البياني وارد فيها كثيرا أيضا ومن ورائه أغراض ودقائق نشير إلى شئ منها .

يروى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (كان إذا دخل العشر الأخير أيقظ أهله ، وشد المئزر) فكنوا عن ترك الوطء بشد المئزر ، وكنى عن الجماع بالعسيلة وعن النساء بالقوارير لضعف قلوب النساء .

وقد جاء في الحديث الأمر بالتعبير بالأحسن مكان القبيح كما في حديث (من سبقه الحدث من الصلاة فليأخذ بأنفه ويخرج) أمر بذلك إرشادا إلى إيهام سبب أحسن من الحدث ، وهو الرعاف ، وهو أدب حسن من الشرع في ستر العورة وإخفاء القبيح . وقد صح نهيه عليه السلام أن يقال : (لشجر العنب) : الكرم ، وقال : إنما الكرم الرجل المسلم) كره الشارع تسميتها بالكرم لأنها تعتصر منها أم الخبائث .

ومن البيان النبوي البليغ في التعبير عن المراد بطريق الكناية كذلك ما روى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في التحذير من الانخداع بما قد تكون عليه المرأة من جمال في البدن ، والظاهر مع ما يكون عليه حالها في الحقيقة من خبث وسوء خلق لكونها خارجة من منشأ غير سوى ، يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصويرا لهذا المعنى : (إياكم وخضراء الدمن) هذا كناية عن جمال المرأة في الظاهر مع سوء الطبع وفساد الخلق .

وقريب من هذا المعنى قول العرب فى أمثالهم السائرة : (إياك وعقيلة الملح) ، جعلوا هذا كناية عن المرأة الحسناء فى منبت السوء ، فإن عقيلة الملح ، هى اللؤلؤة تكون فى البحر ، فهى حسنة ، وموضعها ملح ، ومن ذلك قولهم : (لبس له جلد النمر ، وجلد الأسد) إذا كثرت عداوته ، وعظم حقده .

ويجرى على هذا ما ذكر عن على - رضى الله عنه - حيث قال لابن عباس - رضى الله عنهما - : (وقد بلغنى تنمرك على بنى تميم) يشير بهذا إلى المعنى كما يقول صاحب الطراز .

الكناية فى الشعر :

وقد كان لطريق الكناية نصيبا وافرا عند الشعراء منذ قديم فقد وجدوا فيها تعبيرا كاشفا عن معانيهم وأغراضهم . ومن ذلك قول الشاعر المتنبى فى سيف الدولة :-

وشر ما قنصته راحتى قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم

فكنى بالبزاة عن سيف الدولة ، وبالرخم ، عن غيره ، وأنه يستوى فيه فى المال هو وغيره .

ومن جيد الكنايات ما أنشده الفرزدق رثاء لزوجته :-

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح ... عليه ولم أبعث عليه البواكيا

وفى جوفه من دارم ذو حفيظة ... لو أن المنايا أمهلته لياليا

وقد قيل : إنه ما كنى عن امرأة ماتت بأحسن من هذه الكناية ، وإنها لجيدة فى معناها ، فائقة فى مقصودها ومغزاها .

ومن ذلك ما قاله أبو تمام في الاستعطاف :ـ

ما لي رأيت ترابكم يبس الثرى ∴ ما لي أرى أطوادكم تتهدم

فجعل يبس الثرى ، كناية عن تنكر ذات اليمين ، يقال يبس الثرى بيني وبين فلان ، إذا تنكر الود الذي بينك وبينه ، وهكذا تهدم الأطواد ، فإنه كناية ، أما عن موت الرؤساء ، وأما عن خفة الحلوم وطيش العقول .

ومما حسن موقعه في الكناية عن المرأة ، والعفاف ، قول الشريف الرضي :ـ

أحن إلى ما يضمن الخمر والحلي ∴ وأصدف عما في ضمان المآزر

++++++++++++++++++++

الطبـــاق والمقـابلـــــة

يقول الله سبحانه وتعالى : " ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لايحب المعتديــــن ، ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين " .

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : " خير المال عين ساهرة لعين نائمـــة ".

ويقول الشاعر مستعذبا أياما خلت ومتذكرا بعضا من وقائعها التى صار مفتقدا لها :

ألا ليت أياما مضى لى نعيمهـا .. تكر علينا بالوصال فننعــم
وصفراء تحكى الشمس من عهد قيصر .. يتوق إليها كل من يتكـرم
إذا مزجت فى الكأس خلت لآلئـا .. تنثر فى حافاتهـا وتنظـم
جمعنا بها الأشتات من كل لـذة .. على أنه لم يغش فى ذاك محرم

واضح أن الغرض المراد من النظم الحكيم توجه المسلمين إليه تعالى بالدعاء فـى كل حال سرا وجهرا وكذا التنبيه على الباعث من وراء ذلك الدعاء ، والمراد بالتضـــرع المأمور به هنا : إظهار التذلل خاصة ، ويطلق التضرع على الجهر بالدعاء ، لأن الجهر من هيئة التضرع ، وهذا التفسير هو الأنسب فى هذا السياق لمقابلته بالخفية ليكــون الأسلوب موافقا لنظيره فى الآية الكريمة الثانية : " وادعوه خوفا وطمعا " من حيث المقابلة فالنظم الكريم فى سياق الإذن للمسلمين بأن يدعوه تعالى جهرا أوسرا ، كما أن المقصــود بالآية الكريمة الثانية : تعليم الباعث على هذا الدعاء بعد أن علموا كيفيته ، أى : الدعاء إنما يكون لأجل الخوف من غضبه تعالى وعقابه وللطمع فى رضوانه سبحانه وثوابـه .

المهم أنك ترى فى كلتا الآيتين الكريمتين جمعـا لمعنيين متقابلين حيث قوبل التضـرع الذى هو بمعنى الجهر فى هذا السياق بالخفية ، كما قوبل الخوف بالطمع فى الآية الكريمـة الثانيــــة [1].

---

(١) سورة الاعـراف : ٥٤ ، ٥٥

ويلحظ أن من وراء التعبير على هذا النحو مغزى جليلا ، فقد أشتمل التعبير بالخوف والطمع على جميع ما يتعلق به أغراض المسلمين نحو ربهم فى الدنيا والآخره فيدعونه تعالى بأن ييسر لهم أسباب حصول ما يطمعون ، وأن يباعد بينهم وبين ما يخافون ، وهذا يقتضى توجه هممهم إلى أمتثال كل مأمور به طمعا فى الثواب ، وإلى أجتناب كل منهى عنه خوفا من غضبه تعالى عليهم ، وحلول عقابه بهم .

فالتعبير بهذا الطريق إذن اقتضى الأمر بالإحسان من حيث كونهم يعبدونه تعالى عبادة من هو حاضر فيستحى من أن يعصى .

وفى الحديث الشريف نرى الجمع بين السهر والنوم ، وهما ضدان ، ولأن المراد أن أفضل الأموال هى هذه الأنهار الجاريه فإنها تجرى ليلا ونهارا وصاحبها نائم لا يشعر بحالها كان التعبير بالسهر فى جانب العين مؤديا لتمام الغرض المراد من حيث دلالة ذلك اللفظ على دوام النفع فى مقابل ما يكون من حال صاحبها وهو المعبر عنه بالنوم هنا .

وأما فى هذا الشعر فترى الجمع بين أكثر من متقابل حيث جمع أولا بين (مضى) و (تكر) كما جمع بين كل من (تنثر) و (تنظم) ، وكذا بين (جمعنا) و (الاشتات) فى البيت الاخير .

وقد حقق الشاعر بهذه المتقابلات غرضه حيث صور ما كان فى تلك الأيام التى خلت مما تستطيبه نفسه تذكره مع تمنى عودته .

وقد جرى العرف البلاغى على تسمية ما كان على مثل هذا الطريق من الجمع بين المتقابلين بالطباق (١) أو المطابقه (٢) أو التطبيق أو التكافؤ (٣) أو مجاورة الأضداد (٤) أو المقابلة (٥).

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان

(٢) الإيضاح

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر

(٤) قواعد الشعر لثعلب

(٥) المثل السائر لابن الأثير والطراز للعلوى

ويعرف الطباق عند جمهور البلاغيين بأنه الجمع بين متقابلين في الجملة في كلام واحد وقد أثار بعض أهل العلم جدلا حول الصلة بين المدلول اللغوى لكلمة الطباق أو المطابقة وبين المراد الاصطلاحي . فعلى حين تذكر بعض المصادر أن معنى هذا اللفظ في اللغة مأخوذ من طابق البعير في مشيه ، إذا وضع خف رجله موضع خف يده ، فالرجل واليد ضدان ، أو في معنى الضدين ، فرأوا أن الكلام الذى قد جمع فيه بين الضدين ، أو ما في حكمهما يسمى طباقا ، فإن المتكلم بذلك قد طابق بين الضدين (١).

لكن قدامة بن جعفر لم يرتض هذا الإطلاق على تلك الصورة ، وإنما الطباق عنده يطلق على ما تشترك الكلمتان فيه لفظا مع اختلافهما معنى (٢). وهو ما يعرف عند جمهور البلاغيين بالجناس ، وأيضا فإن ابن الأثير والعلوى يريان الأجود إطلاق لفظ المقابلة على هذا الضرب من البديع ، لأن الضدين يتقابلان كالسواد والبياض ، والحركة والسكون ونحو ذلك من الأضداد من غير حاجة إلى إطلاق أمثال الطباق والمقابلة مما يشعر بالتماثل بدليل قوله تعالى : " سبع سموات طباقا " (٣) أى : متساويات .

وعلى ذلك فكل ما جرى فيه تقابل يدخل في المقابلة ، فالمقابلة على هذا تتسع فتشمل صور الطباق جميعا وكذا صور المقابلة على ما جرى عليه من قال بالتفريق بينهما .

ومع التسليم بأنه لا مشاحة في المصطلحات كما يقولون إذ الأهم وخاصة في باب البلاغة ما وراء الفن البلاغي من أغراض وأسرار ، إلا أن الحقيقة التاريخية تثبت صحة إطلاق أمثال لفظ الطباق والمطابقة على تلك الصورة البديعية حيث نقل عن الخليل : يقال : طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما (٤).

---

(١) الإيضاح

(٢) نقد الشعر

(٣) سورة الملك

(٤) العمدة جـ ٢ ص ٧

وتبصر دلالات الألفاظ ، ومواقع الكلمات ، والعلم بحقائق اللغة ، وماجرى عليه عرف ، وهذا لايكون إلا بتتبع النماذج العالية شعرا ونثرا ، وقبل ذلك فى النموذج الأعلى للفصاحة والإعجاز : القرآن الكريم وكذا ماورد من كلام أفصح البشر صلى الله عليه وسلم .

إذ ليس العبرة فى هذا الفن البديعى مجرد معرفة أن فى الكلام جمعا بين متقابلين ليصح إطلاق الطباق عليه ، وإنما المهم فى باب البلاغة دائما الوقوف على مغزى هذا الجمع بين المتقابلات حيثما ذكرت ، إذ لابد أن يكون من ورائه معنى ومغزى وغرض ، وإلا صار الكلام ضربا من العبث والخداع والتذويق والكذب أو التكلف الذى لاتدعو إليه ضرورة .

أنظر مثلا إلى قول حبيب بن أوس مادحا :

لعمرى لقد حررت يوم لقيته ... لو أن القضاء وحده لم يبرد

تجد أن ليس من وراء الجمع بين المتقابلين معنى أو غرض ، ومن هنا حكموا على أمثاله بالقبح والاستهجان (١).

ثم أنظر إلى قوله تعالى : " الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار - عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار " (٢) .

تجد هذه المطابقات البليغة فى تلك الآيات الكريمة ، حيث وردت المطابقة أولا بين (تغيض وتزداد) ، وكذا بين الغيب والشهادة ، ثم بين أسر وجهر وبين مستخف بالليل وسارب بالنهار ، ثم تأمل سياق النظم الكريم والغرض منه ، تتضح لك بلاغة هذه المطابقات ، فالمراد الدلالة على شمول علمه سبحانه وتعالى لسائر خلقه وملكوته وما

---

(١) سر الفصاحة ص ١٩٥

(٢) الرعد الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠

كان أو يكون ما ظهر من ذلك وشوهد وما خفي واستتر عن الخلق ، أو عمد بعض الخلق إلى ستره وإخفائه .

وحيث كان الغرض هذا فقد جاءت المقابلة بين تغيض الأرحام وتزداد ، لتحقق تمام علمه تعالى بحال الأجنة في بطون أمهاتها حتى قبل تمام الخلق والبروز إلى الحياة ، فعلمه تعالى لما تغيض الأرحام ، أى تنقصه ، ولما تزداد ، سواء أريد النقص والزيادة ما يتصل بالمدة أو ما يتعلق بتمام الخلق أو عدم تمامه فكل شيء عنده تعالى مقدر بما لا يمكن تجاوزه ، فإن لكل أمر من الأمور مع مراتب تكوينه وأطوار وجوده وقتا معينا وحاله مخصوصة لا يكاد يجاوزها ، ثم تأتي المطابقة بين علم الغيب والشهادة لتفيد عموم علمه تعالى لما غاب عن الحس ولما هو كائن ومشاهد ، وقد ورد التعبير على هذا النحو مفيدا لمعنى المبالغة .

وحيث أفادت هذه المطابقات أنه تعالى عالم بجميع أحوال الإنسان في أطوار خلقه وأنه محيط بعالمي الغيب والشهادة بين أنه تعالى عالم بجميع ما يأتون به وما يذرون من الأفعال والأقوال ، وأنه لا فرق بالنسبة إليه بين السر والعلن فجاء قوله : " سواء منكم من أسر القول ومن جهر به " فالمطابقة هنا أفادت استواء أمر إسرار الشيء وإخفائه أو إعلانه وإظهاره في علمه تعالى وكذا لا ينفد علمه من بالغ في الإخفاء ورأى في ظلام الليل معينا له أو بارز مجاهراً بفعله بحيث يراه كل أحد فلا هو يستحي ولا يبالي بل يبدى من حاله وكأنه معجب مختال فيأتي بما يأتي في غير اكتراث ولا رادع من نفسه ولا من غيره ، ويلحظ في تقديم الإسرار والاستخفاء هنا لإظهار كمال علمه تعالى فإنه في التعلق بالأمور الخفية أثبت منه بالظواهر ، وإن كان الجميع سواء في علمه تعالى على الحقيقة ، ولهذا الاعتبار أيضا قدم علم الغيب على الشهادة من حيث كان علم الغيب أدل على ثبوت علمه تعالى وشموله .

ومن معجز هذا الضرب في القرآن الكريم كذلك قوله تعالى " فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون " (١) . فقد جمعت

---

(١) الروم : ١٧ ، ١٨

المطابقات هنا بين أجزاء الظرف المكانى : السموات والأرض ، كما جمعت بين أطراف الظرف الزمانى ، لأن المساء ضد الصباح والعشاء ضد الظهر ، ومن حسن بلاغة المطابقات هنا أنه روعى مقابلة كل لفظ بما هو أنسب به وأخص ، فالمساء وهو زمن الليل مطلقا مقابل بالإصباح كما أن العشى وهو وقت معين من الليل ، مقابل بمعين من النهار يناسبه وهو وقت الظهيرة ، وإن أريد بالمساء دخول الليل حسنت المطابقة بينه وبين الإصباح من حيث إنه يراد به حينئذ وقت دخول الصبح ، فالمطابقة حاصلة مع الاعتبارين .

ويقول تعالى فى مدح أهل الإيمان الحق وذكر أحوالهم الدالة على تمام تعلقهم واستدامة ذكره تعالى وخطوره ببالهم فى كل حال : " الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم " ، فقد جمعت هذه المطابقة بين الهيئات التى يكون عليها أمثال هؤلاء فهم يذكرونه تعالى فى كل حال يكونون عليه فى أثناء حركاتهم ونشاطهم وفى حين سكونهم ورقادهم .

ويلحظ هنا تقديم القيام على القعود على خلاف ما ورد فى مواقع أخرى نظير قوله تعالى : " وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ... " (١) .

ولا ريب فى أن من وراء تلك المغايرة فى الترتيب بلاغة تدرك من فهم سياق الموقعين فالآية الأولى فى سياق الذكر وهو مفسر هنا بالصلاة وبما أن القيام واجب فيها على المستطيع والقعود رخصة لمن لم يستطع القيام ، ولا يكون الاضطجاع فيها إلا لمن هو عاجز عن القيام والقعود لذلك قدم القيام على القعود ، وأما الآية الثانية فواردة فى سياق من وقع عليه الضر وحينئذ ، فتقديم الاضطجاع هنا أولى وأدل على الغرض لدلالته على غلبة الضعف لغلبة أمر المفاجأة بما وقع فإذا زال عنه شىء من الانزعاج وأثر البغتة قام من أضطجاعه حتى إذا استجمع قواه نهض وقام .

كما يلمح مع العطف بأو هنا دون الواو معنى التقسيم ، فإن معها أشارة إلى بيان أن أحوال الناس عند وقوع الضر عليهم متباينة فمع أنهم يتوجهون إليه تعالى بالدعاء لكشف

---

(١) يونس ١٣

ما حل بهم من بلاء لكن تتباين هيئتهم فمنهم من يدعونه متعاليا في حال الاضطجاع و منهم من يدعونه قعودا كما أن منهم من يدعونه عن قيام فنظرا لاختلاف أحوال الناس تبعا لأثر وقوع الضر بهم ومدى عنائه فيهم كان هذا الترتيب على تلك الصورة وكانت أو حينئذ أبلغ استعمالا في هذا الموقع ونظائره .

صور الطباق

وقد جرى العرف عند أهل البلاغة على تقسيم الطباق إلى أقسام عديدة وبالنظر إلى اعتبارات شتى .

وتود أن نشير أولا إلى أنه ليس المهم تحديد تلك الأقسام والتفريعات ، وإنما المهم تتبع تلك الأقسام والصور بغرض الاهتداء إلى الفروق بينها في الدلالة ، ومغزى التعبير مع كل منها ، فللمتكلم البليغ قصد وغرض من وراء إيثار التعبير بالفعل ولاشك يفوت إن هو عبر عنه بالاسم أو الحرف ، حتى وإن كان الطباق في كل الأحوال حاصلا من حيث الظاهر ، بل إن سلوك ضرب معين من ضروب الفعل أو مايلحق به من مشتقات إنما يكون من ورائه ملمح يفوت ، أولا يتحقق على وجهه الصحيح إن عبر بغيره .

ومن هنا كانت دراسة هيئة الكلمات والصيغة التي هي عليها ، وما لابسها في التركيب الذي هو فيه مع ملاحظة السياق والاعتداد بالقرائن - أمورا لابد أن تأخذ حقها من الاعتبار حيث يراد فهم الأساليب وطرق أداء المعاني .

وبعد هذا أعود إلى ماكنت أصلا بصدده وهو ذكر صور الطباق وأنواعه .

فمن حيث الصيغة وهيئة الكلمة :

يرد الطباق على أقسام الكلمة الثلاثة بمعنى أن تكون ألفاظه من قبيل الأفعال أو الأسماء أو الحروف ، كما تتداخل تلك الأقسام معه فليس بشرط اتحاد الطرفين فهو يرد ببعض

ألفاظه أسما والبعض الآخر فعلا وهذا خلاف لمن أشترط أتحاد الطرفين (١)، وأخطــأ في ذلك لمخالفته الوارد في الاستعمال .

يقول سبحانه وتعالى " الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النــور " (٢)

فالمطابقة في الآية الكريمة بين الظلمات والنور ، وهما اسمان ، لكن يلحظ المغايرة بين اللفظين حيث جمعت الظلمات وأفرد النور ومن وراء ذلك مغزى جليل ، فإن للكفــر والضلال المراد من الظلمات سبلا شتى وطرقا متفاوتة ومختلفة ، ففي جمع الظلمــات إشارة إلى هذا المعنى ، بخلاف أمر الإيمان والهداية وهو المراد بالنور فهو سبيل واحد لذلك ورد لفظ النور الدال على هذا المعنى على الأفراد ، " قل هذه سبيلي " (٣) ، ومن هنا رأينا العرف القرآني يجري على هذا النحو في جمع الظلمات وأفراد النور حيث وقع فالظلمات ضلالات ، " ولا تتبعوا السبل " (٤) .

ويقول سبحانه وتعالى " هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعــا " (٥) فقد وقعت المطابقة هنا بين (خوفا وطمعا) ، وهما اسمان ومن بلاغة هذه المطابقة أنها جمعت بين كل من الحالتين التي يكون عليها الناس عندما يرون البرق ، إذ ليس في رؤية البرق إلا الخــوف من الصواعق والهلاك بذلك ، والطمع في الإمطار والرزق به ، ولا ثالث لهذين الأمرين .

ومن لطيف موقع هذه المطابقة : تقديم الخوف على الطمع ، إذ يجوز وقوع ما به هــلاك أول الأمر ، ولا يحصل مطر إلا بعد تواتر الإبراق ، ولما كان الأمر المخوف من البرق يجــوز وقوعه من أول الأمر قدم ذكر الخوف ولما كان الأمر المطمع من البرق إنما يقع بعد توالـــي الإبراق أخر ذكر الطمع ، وليكن الطمع ناسخا للخوف الذي كان ، كمجيء الرخاء بعــد الشدة ، والفرج بعد الكرب ، والمسرة بعد الخوف ، فيكون ذلك أحلى موقعا في القلوب،

---

(١) شروح التلخيص جـ ٤ ص

(٢) سوره البقرة الآيــة

(٣) سورة يونس الآية ٢٨

(٤) سوره الأنعام الآيــة ١٥٣

(٥) الرعــد الآيــة ١٢

ويشهد بهذا قوله تعالى : " وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته " (١)
هذا فضلا على ما هو معلوم من أن درء ما فيه مضرة مقدم على جلب ما فيه منفعة لذا كان
وقوع المطابقة على هذا النحو من تقديم الخوف على الطمع مطابقا لمقتضيات الحال والغرض.

ومن هذا الضرب من المطابقات كذلك ما ورد فى قوله تعالى " والضحى والليل إذا سجى
ما ودعك ربك وما قلا . وللآخرة خير لك من الأولى " (٢) حيث كانت المطابقة بين الضحى
وبين الليل فى الآية الأولى ، ثم كانت بين الآخرة والأولى فى الآية الكريمة الثانية ، وطرف
المطابقين من قبيل الأسماء ، غير أنه يلحظ أن اللفظ المقابل للضحى وهو الليل قد
جاء هنا مقيدا (إذا سجى) وهذا التقييد لاغنى عنه فى هذا السياق، ذلك أن الليل
لايقابل مطلق النهار ، حتى تتم المقابلة به على الإطلاق ، وإنما المقابلة بين الليل ووقت
متعين من أوقات النهار ، وهو وقت الضحى ، وهو الوقت الذى تكون فيه الحركة
والنشاط ، أو هكذا ينبغى أن يكون الأمر كذلك ، فملاءمة المطابقة تقتضى إذن أن يقيد
الليل بما يعين وقتا منه حتى تكون مقابلته بالطرف الآخر على أتم وجه فجاء قوله تعالى
(إذا سجى) أى : إذا سكن وهدأ ، فحصل بهذا تمام المناسبة بين الطرفين ، فما دام
سبحانه قد أقسم أولا بوقت من النهار تبين فيه الحركة والنشاط ، فقد أقسم سبحانه
كذلك بوقت من الليل يكون فيه السكون والهدوء ، على أن ينبغى الإشارة إلى أن ليس
المراد من الحقيقة مجرد الدلالة على مايشير إليه ظاهر اللفظين من الحركة والسكون والجمع
بينهما على هذا النحو ، بل من وراء ذلك الجمع والطابقة معنى جليل ، حيث الآيات
واردة فى سياق تطمين قلبه صلى الله عليه وسلم وتسكين فؤاده الشريف ، وأن فتور الوحى
وانقطاعه عنه عليه الصلاة والسلام فترة من الزمان ، قد أورثه ذلك شيئا من الحرج وألم
النفس سيعقبه توارد الوحى ، وتواتره ، وما تلك الحال إلا أعداد وتهيئة لما سيأتى
شأن الليل الساجى ليتخذ الناس منه لباسا لهم وراحة يتهيئون بها لمشاق الحياة والحركة
فى نهارهم ومعاشهم .

فانظر إلى فضل ملاءمة هذه المطابقة على هذا النحو من تقييد أحد طرفيها لفظا
ليلائم الطرف الآخر ، فهو وإن لم يقيد فى اللفظ لكنه مقيد بأعتبار معناه ودلالته ، إذ الضحى

---

(١) الشورى : ٢٨

(٢) سورة الضحى : الآيات ١ ، ٢ ، ٣

وقت من أوقات النهار خاص ، وتلك الخصوصية مرادة في هذا السياق .

ثم أنظر إلى المقابلة بين لفظي الآخرة والأولى . والشأن والظاهر في مثل تلك المطابقة ذكر لفظ الأولى أولا . كما جرى على ذلك الاستعمال القرآني في أكثر المواقع وقد يقال : إنما كان التأخير هنا مراعاة لفواصل الآيات على مثال ما عليه الحال في قوله تعالى : " فأخذه الله نكال الآخرة والأولى "(١) . " أم للإنسان ما تمنى . فلله الآخرة والأولى "(٢) . ونظير هذا ما أخر معه لفظ الأولى على الآخرة لمناسبة رؤوس الآي .

ولا ريب في أن للفاصلة القرآنية بلاغتها ، لكن ذلك لا يمنع من التماس توجيه آخر مع ذلك ، ولا تزاحم ولا تعارض بين تعدد التوجيهات والأخذ بها معا خاصة وأن السياق والقرائن تعين على هذا وتدعوا إليه ، فالمراد بالآخرة والأولى هنا على ما يقول أكثر أهل العلم والتفسير ليس المتبادر وهو الحياة الدنيا والحياة الآخرة على نحو ما جرى عليه العرف القرآني في كثير من المواقع ، وإنما المقصود بالآخرة والأولى معنى آخر يناسب خصوص هذا السياق ، وهو وعد الله سبحانه أن يكون منه وحي لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بعد ما كان من انقطاع ، فالمراد بالآخرة على هذا : إنزال الوحي مرة ثانية بعد انقطاعه ، كما أن المراد من الأولى : ما كان ينزل من الوحي أولا ، أي : قبل تلك الفترة التي أنقطع فيها الوحي فهذا ضمان منه تعالى ووعد بأن تزول عنه - صلى الله عليه وسلم - تلك الحال التي روعته حينا من الزمان ، وهنا يكون تقديم الآخرة في هذا السياق وعلى هذا المعنى المراد أنسب وأبلغ فهذا اللفظ هو محل الوعد وبه يكون التطمين وذهاب التوجس ، كما أن في المراد أيضا أثبات خيرية ما سيكون من وحي على ما كان من قبل من حيث إنه سيدوم .

ومن كلامه الجامع - صلى الله عليه وسلم - ويدخل فيما نحن فيه " أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها : أوصاني بالإخلاص في السر والعلن والعدل في الرضا والغضب والاقتصاد في الفقر والغنى " . حيث وقع في تلك الوصية البليغة ثلاث مطابقات ، فكانت المطابقة

---

(١) سورة النازعات الآية ٢٥

(٢) سورة النجم الآية ٢٤ ، ٢٥

أولا بين السر والعلن ، والثانية بين الرضا والغضب ، والثالثة بين الفقر والغنى ، ومن بلاغة هذه المطابقات أن جاء كل منها عقب لفظ ومعنى هو أخص بها وأنسب حيث كان الإخلاص معلقا بالسر والعلن لينتفي بذلك شائبة الرياء والتظاهر فيما يكون من أعماله كما علق العدل بحالتي الرضا والغضب ، إذ حالة الغضب مظنة لأن يحيد معها الناس عن الحق والعدل فكان الجمع بينهما وبين حالة الرضا موضحا أنه ينبغي ألا يستجيب الإنسان فيما يصدر عن انفعالات نفسية وإنما ينبغي أن يكون قصد الحق دائما هو الأصل في كل أحواله وكذلك علق الاقتصاد بحالتي الفقر والغنى ، وفي هذا دلالة على أن ليس الغنى وكثرة المال مسوغا للتفريط فيه في كل وجه ، فكما أن حالة الفقر ابتلاء من الله كذلك أمر الغنى وكثرة المال فتنة منه تعالى لمن وهبه أياه ومن هنا كانت وصيته -صلى الله عليه وسلم- وتشديده على أمر الاقتصاد والاعتدال في حالتي الفقر والغنى على السواء .

ومن شواهد هذا الضرب شعرا قول كثير يصف عينا

وعن نجلاء تدمع في بياض ... إذا دمعت وتنظر في سواد

وقول ابن المعتز :

هواى هوى باطن ظاهر ... قديم حديث لطيف جليل

وكما وردت المطابقة وطرفاها اسمان تأتي كذلك وطرفاها فعلان ، يقول سبحانه وتعالى : " وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا " (١) . فقد وقعت المطابقة هنا بالجمع بين الضحك والبكاء ، كما كانت بين الإماتة والإحياء مع التعبير بطريق المضى والمراد كما يقول الطيبي : أنه تعالى الخالق لأسباب السرور والحزن . أو ما يسر وما يحزن من الأعمال الصالحة والطالحة ، ولذا اقترن هذا الطباق بقوله تعالى : " وأنه هو أمات وأحيا " . ومن هنا يدرك وجه التناسب بين الطباقين من حيث إن الإماتة يعقبها حزن وجزع ، والإحياء بالولادة يعقبه فرح وسرور (٢) .

---

(١) سورة النجم الآية ٤٣ ، ٤٤

(٢) روح المعاني جـ ٢٧ ص ٦٨

وقد يسلك طريق المضارعة في التعبير عن طرفي هذه المطابقة لأن السياق والغرض يطلب هذا ، يقول سبحانه وتعالى : " هو الذى يحي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون " (١). فالغرض : التدليل على بالغ قدرته تعالى ، فإن كلا من أمر الإحياء والإماتة من شئونه تعالى المتفرد بها دون أن يكون لغيره نصيب فيهما ، أو في أحدهما .

ولأن كلا من الإحياء والإماتة مما يعدد ويتجدد وله مراتب وأطوار كان التعبير عنها بطريق المضارعة المفيد لتجدد زمان الحدثين ودوام هذا الشأن مع كل حال وفي كل حين وجيل وخلق موجود وكذا ما سيكون من مخلوقات لايتخلف منها عن هذا الحكم أحد وإذا كان غيره سبحانه أعجز عن أن يكون منه أحد طرفي هذه المطابقة يكون إيجاده تعالى لكلا الأمرين وعلى هذا النحو من التعميم المستوعب لكل زمان ولكل مخلوق أدل على بالغ قدرته تعالى . ولذا قدم الضمير العائد عليه تعالى وصدر به النظم الحكيم : " هو الذى يحي ويميت " . مبالغة في تقوية وتوكيد هذا المعنى في الأذهان مع أنه من المعلوم أن الإحياء والإماتة من ذلك القبيل الذى لايتيسر لأحد أن يدعيه ، حتى يحتاج مع أمثال تقديم ما يفيد اختصاص بالله تعالى وحده .

وقد يقتضى حال الكلام وسياقه المزاوجة في التعبير عن تلك المطابقة يقول تعالى " كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون " (٢) .

فالآية الكريمة تجمع بين طباقين ، وقد عبر عنه أحد طرفي الأولى منها باسم " أموات " وعن الآخر بالفعل الماضى " فأحياكم " وعلى حين كان التعبير عن طرفي المطابقة الثانية بلفظ المضارع (ثم يميتكم ثم يحييكم) وذلك لأن الآية الكريمة في سياق خطاب ، وهم موصوفون حال الخطاب بالحياة التى أوجدها الله تعالى لهم بعد أن كانوا في حال العدم كالأموات ، فكان التعبير عن حياتهم بالفعل الماضى لتحقيق وصف الحياة فيهم ثم كان التعبير من بعد على سبيل المضارعة لأن كلا من الموت وحياة البعث مما يستقبل ويطرأ .

---

(١) غافر الآية ٦٨

(٢) البقرة ٢٨

وهذا النوع من المطابقات أعنى ما يقع بين الأسماء والأفعال كثير الورود فى القرآن الكريم وفى كلام الفصحاء .

ومن ذلك ما ورد فى خطبة للإمام على كرم الله وجه (الحمد لله الذى لم يسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا ، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن وكل باطن غيره ظاهر) (١) .

فهذا النص البليغ قد اشتمل على مطابقات ثمانية ، وإذا كان أكثرها بين الأسماء من نحو المطابقة الحاصلة بين لفظى : أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا فقد جاء بعض منها بين الأسماء والأفعال كالمطابقة بين : قادر ويقدر ، وكذا ما بين سميع ويصم .

ومما ورد على ذلك شعر :

بساهم الوجه لم تقطع أباجله .... يصان وهو ليوم الروع مبذول

يريد الشاعر بذلك وصف فرس بالقوة والجرى السريع من غير أن تهد وآثار ذلك الجرى على وجهه لقوته ودربته حيث يعد ليوم الفزع والحرب ، وواضح أن المطابقة حاصلة بين كلمة يصان التى هى من قبيل الأفعال وكلمة مبذول التى هى أسم مفعول .

وقد ترد المطابقة بين فعلى أمر .

يقول تعالى : " فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف " (٢) . فهذا تخيير منه تعالى للمطلق طلاقا غير بائن أن يراجع عند مشارفة آخر العدة بحسن معاشرة أو بالفرقة لكن فى غير إضرار .

---

(١) الطراز جـ٢ ص ٣٨٠

(٢) الطلاق الآية ٢

ومن هذا الضرب كذلك قوله تعالى خطابا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ " قم الليل إلا قليلا نصفه أو أنقص منه قليلا ـ أو زد عليه ... "(١). فقد حصلت مطابقة هنا أيضا بالجمع بين فعلى انقص وزد ، وكلاهما فعل أمر فالمراد تخييره ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين أن يقوم نصف الليل أو أقل منه أو أكثر .

وبين الحروف :ـ

وكما تكون المطابقة بين الأفعال والأسماء تجرى كذلك بين الحروف حين يكون أو يلحظ بين معنى الحرفين تقابل . فمثلا (من) للابتداء و (إلى) للانتهاء ، وبهذا الاعتبار إذا جمع بينهما فى كلام واحد يحدث الطباق فنجد قوله تعالى : " سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ... "(٢) . فيدخل فى الطباق إذ الجمع بين (من) الدالة على الابتداء وبين (إلى) الدالة على الانتهاء يحقق معنى المطابقة وكذا الجمع بين حرفى اللام التى يفهم منها معنى النفع وعلى المستفاد منها معنى الضرر نظير قوله تعالى : " لايكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت "(٣) فالمطابقة هنا بين اللام وعلى ، لأن اللام للملك المؤذن بالانتفاع ، وعلى للاستعلاء المؤذن بالتحمل والضرر . ويلحظ هنا أن فعل الكسب جاء مع اللام على حين ورد فعل الاكتساب فى حيز على ، ومع أن الفخر ينقل عن أكثر أهل اللغة عدم التفريق بين الفعلين كما أن القرآن الكريم شاهد على ذلك ، حيث ورد فعل الكسب مرادا به الخير أو الشراء وبما يعم الأمرين لكن لاحظ صاحب الكشاف الزمخشرى فى هذا السياق حيث خص التركيب المفيد للنفع والخير بالكسب على حين خص ما يفيد الشر والضرر بالاكتساب ، لأن الاكتساب فيه معنى الكلفة والتحمل فكان لهذا بجانب الشر أنسب ولما كان جانب الخير لاكلفة معه خص بما هو أنسب به (٤) .

ومن ذلك ما يؤثر عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ " النظرة الأولى لك ، والثانية عليك " . فقد جمع فى هذا القول الشريف بين اللام الدالة على نفى الإثم والتهمة حيث لم يقصد بتلك

---

(١) المزمل الآية ٢ ، ٣ ، ٤

(٢) الاسراء الايه ١

(٣) البقره الايه ٢٨٦

(٤) الكشاف جـ ١ ص

النظرة اقتراف محرم بل كانت عنوا وبين "على" الدالة على وقوع الضرر والإثم حيث كانت هذه النظرة صادرة عن عمد وقصد غير مباح وعلى هذا كانت المطابقة بين الحرفين من حيث كانت دلالتهما متضادة .

فإن لم يقصد بالحرفين معنى تقع به المقابلة فلا طباق فكما أن الحرف الواحد يدل على أكثر من معنى . تتداخل معانى الحروف والحاكم فى ذلك السياق والغرض المراد .

ومما يجرى على هذه الصورة وهو من مشهور مايستشهدون به قول جميل

على أننى راض بأن أحمل الهوى ... وأخلص منه لاعلى ولاليا

والمطابقة هنا حاصلة من الجمع بين على الثانية واللام فى قوله : (ليا) لأن على الأولى فى صدر البيت بمعنى مع ، يريد أنه قد تحمل فى أمر حبه مايوجب مدحه والثناء عليه ، غير أنه يرضى بأن يخلص منه وليس عليه ذنب ولا له مدح .

ويقول آخر :

ويوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُساء ويوم نسر

طباق السلب :-

وكما كان الطباق فيما سبق بين طرفين موجبين وهو مايعرف بطباق الإيجاب يكون كذلك والطرفان غير مثبتين بأن يدخل عليهما نفى أو نهى .

فمثال منفيين قوله تعالى : فى شأن تقرير وتحقيق أمر وحدانيته تعالى وتفرده عن سائر الخلق وانعدام الشبهة أو النظير " لم يلد ولم يولد "(١) . فلأنه سبحانه قد وصف نفسه بالأحدية ، والشأن فى ذلك أن يخالف الحال معه سبحانه ماعليه أمر غيره من الخلق والخلائق ، فشأن الخلق أنهم يتوالدون ، وإذا كان الغالب فى حقهم أنهم يولدون ويلدون .

---

(١) الإخلاص الآية ٣ .

وربما كان منهم من لايلد ، لكن لما كان سبحانه على غير مثال كانت تلك المطابقة الحاصلة من نفى كل من الأمرين عنه جميعا محققا لهذا الغرض إذ لا أحد سواه حاله على هـذا النحو من انتفاء الأمرين ، فثبت بذلك أحديته على نحو ما صرح به النظم الكريم : " قـل هو الله أحد " ، كما صح بذلك ما ختم به السورة الكريمة حيث لايوجد من يكافؤه أو يماثله ويشـاكلـه .

ويقول سبحانه وتعالى فى سياق بيان حال من أحوال تلك الشجرة التى يوقد بهـا المصباح الواردة فى سياق تمثيل نوره تعالى الذى يعم السموات والأرض : " يوقـد من شجرة مباركة زيتونـة لاشرقية ولا غربيـة " (١)

حيث نفى عن تلك الشجرة كونها شرقية أو غربية ، فحصل بذلك طباق السلب بنفى المتضـادين .

ويقول سبحانه وتعالى فى وصف حال من يصلى النار وأنه مخلد فيها : " ثم لايمـوت فيها ولا يحيا " (٢) . فالموت والحياة كلاهما منفى وهما ضدان فكان بذلك طباق السلب وهؤلاء الذين حكم عليهم بالنار لايموتون حقيقة ، لأن النار مأواهم أبدا وأما انتفاء الحيـاة عنهم مع كونهم فى الحقيقة أحياء فيها فلقصد إفادة المبالغة فى وصف سوء حالهم ومايلحقهـم من شدة العذاب ، حتى لكأنهم أحياء من حيث إن حياتهم غير طيبة .

وأما طباق السلب الحاصل بالنهى الداخل على الطرفين فنظيره قوله تعالى : " ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط ... " (٣) . حيث النهى هنا داخـل على كل من جعل اليد مغلولة والمراد بذلك الإمساك والبخل وأيضا على بسط اليـد

---

(١) النـور ٣٥

(٢) الأعلـى ١٣

(٣) سـورة الاسراء ٢٩

والغرض الإسراف والتهذير وبين الأمرين تضاد . فكان بذلك طباق السلب ، والغرض من هذا النهي عن كل من الإفراط في البخل وكذا التفريط في المال ليفهم من ذلك أن المباح ما كان بين الأمرين ، وهو المشار إليه صحيحا في سياق آخر ويدخل فيما نحن فيه أيضا : يقول تعالى " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما "(١). فهذا من أوصاف أهل الإيمان فلا بخل ولا إسراف ، بل أمرهم على الاقتصاد والإنفاق في اعتدال وعلى الوجه المقبول شرعا .

طباق الإيجاب والسلب :-

ويتحقق هذا الضرب بإثبات أحد طرفي الطباق من جهة وسلبه من جهة أخرى ، سواء كان طريق السلب النفي أو النهي ، وسواء كان ذلك بين الأفعال أو الأسماء ، وهذا مفاد ما ذكره أبو هلال تعريفا لهذا الضرب وأخذه عنه صاحب بديع القرآن يقول صاحب الصناعتين : (وهو بناء الكلام على نفي الشيء من جهة وإثباته من جهة أخرى ، أو أمر بشيء من جهة ونهى عنه من جهة غير تلك الجهة)(٢). وإن كان ما ذكرته أولا أوجز مع وفائه بالغرض .

وأما قول الخطيب : (هو الجمع بين فعلي مصدر واحد ، وأحدهما مثبت ، والآخر منفي ، أو أمر ونهي) فغير مسلم ، لكونه يحصر هذا الضرب في الأفعال مع أنه يرد في الأسماء كذلك .

ومن شواهد السلب بالنفي في الأفعال قوله تعالى : " وما رميت إذ رميت "(٣). حيث جاء الفعل (رمى) مثبتا مرة ومنفيا مرة أخرى ، وهذا نظير قوله تعالى : " ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ... "(٤). فالفعل (يعلمون)

(١) الفرقان الآية ٦٧

(٢) الصناعتين ص ٤٢١ وينظر بديع القرآن ص ١١٦

(٣) سورة الأنفال الآية ١٧

(٤) سورة الروم الآيتان ٦ ، ٧

جاء مثبتا من جهة باعتبار العلم بحقائق الأشياء . وجاء مثبتا باعتبار أن علمهم متعلق بظاهر الأمور فحسب . فكأن المعنى : ولكن أكثر الناس يجهلون . فحصل بذلك معنى الطباق .

ويدخل في هذا ما ورد حين قيل لابن عمر — رضى الله عنهما — " ترك فلان مائة ألف . فقال : ولكنها لاتتركه ومن ذلك أيضا قول الحسن توبيخا لهؤلاء الذين ركنوا إلى المعصية : أما تستحيون من طول مالا تستحيون " .

ومن شواهد ما كان بين الأمر والنهى قوله تعالى : " فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة... " (١) . فإنه سبحانه نهى الولد عن أن يقول للوالدين أدنى قول مؤلم . أو ما فيه غضاضة . وأمره بالقول الكريم وخفض الجانب لهما ذلا وتواضعا . فأمره سبحانه بأمرين . ونهاه عن أمرين . وكقوله تعالى : " فلا تخشوا الناس واخشون " (٢) .

ومن شواهد السلب بالنفس شعرا قول الشاعر :

جزعت ولم أجزع من البين مشفقا ... وعزيت قلبا بالكواعب مولعا

وقول آخر :

ونكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولاينكرون القول حين نقول

وأما ما كان من هذا الضرب بين الأسماء فنظير قوله تعالى في سياق التدليل على طلاقة قدرته تعالى الصاحبة لسائر أطوار الخلق : " ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة... " (٣) .

---

(١) الإسراء الآية ٢٤

(٢) آل عمران

(٣) الحج الآية ٥

فقد وردت كلمه مخلقه مثبته أولا ومنفيه بغير ، وهى من قبيل الاسماء والغرض منوراء تلـــك المطابقه على هذا النحو الاشاره الىبليغ قدرته سبحانه حيثيتم التخليق فى الرحم ان شـاء تعالى لهذا الخلق التمام أو يقذفه الرحم لغير تمام حتى وان أمضى بعد أطوار التكويـــن ليبين بالامرين عظيم قدرته تعالى .

ومن هذا أيضا قوله تعالى فى سياق أثبات القدره الالهيه كذلك : " وفى الارض قطــع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ... " (١) . فكلمه صنـــوان وردت مرة منفيه ومره أخرى ، والغرض أن النخيل منها ما ينبت من أصل واحد شجرتـــان أو أكثر ، ومنها ما ليس كذلك ، أو المراد أن أشجار النخيل قد تكون متماثله متشابهـــه وقد لاتكون كذلك (٢) . وخلق الشجر على الحالين أدل على بالغ القدره . ونظير هـــذا قوله تعالى : " وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشـــات " (٣) .

وأيضا ما ورد فى بيان حال الناس يوم الفزع الاكبر حين يبدون من أشتداد الامر عليهم لما رأوه ، وبلوغ الانزعاج مبلغه وكأنهم لشده الذهول سكارى ، وان كانوا فى حقيقـة الأمـر ليسوا بسكارى : " وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ... " (٤) . فالسكر هنا مثبـــت أولا ، ثم نفى من بعد ذلك فكان بذلك طباق الايجاب والسلب .

ومن شواهـــد هذه الصـوره شعـرا :

الى سالم الاخلاق من كل عائب ... وليس له مال على الجود سالم

بل ان هذا التعريف يتسع لاجتماع الفعل والاسم من مادة واحدة وأحدهما مثبـــت والاخر منفى كقول مسلم بين الوليــــد :

هو البدر يغنيها تودد وجهها ... الى كل من لاقت وان لم تودد

(١) الرعـــد الايـــه ٤

(٢) التفسير الكبير ج ١٩ ص ٩

(٣) سوره الانعام الايه ١٤١

(٤) الحج الايـــه ٢

ف (تودد) الاولى أسم مضاف الى وجهها ، و (تودد) الثانيه فعل أصله (تتودد) وقد دخلت عليه (لم) وهو حرف نفى وجزم وقلب كما يقول النحويون ، وهذا من طباق السلب ولا فرق بينه وبين ماسبقه من أمثله . وبهذا نرى تجاوز تعريف الخطيب للقصد في هذا المجال .

المقابلـــــــة

سبق أن الطباق إنما يكون بالجمع بين متقابلين ، كما سبقت الإشارة إلى أن ابـــن الأثير والعلوى لا يرتضيان مصطلح المطابقة لعدم الملاءمة بين المدلول اللغوى لهـــذا اللفظ والمراد به ، ويدخلانه في مفهوم المقابلة ، حيث إنها عندهما أنسب وأعم ، وإن كان العرف البلاغى قد جرى على التمييز بينهما على ما سيتضح من خلال عرض وفهم الأمثلـــة والشـواهـــد .

يقول سبحانه وتعالى : " وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا "(١) .
ويقول صلى الله عليه وسلم : (إن لله عبادا جعلهم مفاتيح الخير مغاليق الشر) .
ويقول عبد الملك ابن مروان : ما حمدت نفسى على محبوب ابتدأته بعجز ، ولا لمتها علــى مكروه ابتدأته بحزم .

وقال الشاعـــــر :

ليل الشباب وحسن الوصل قابله ... صبح المشيب وقبح الهجر والندم

فبالنظر فى تلك النماذج نرى أن هناك تقابلا فى كل منها بين أكثر من لفظين ، ففى النظـم الحكيم الليل مقابل بالنهار ، واللباس مقابل بالمعاش ، وفى الحديث الشريف تقابـــل بين لفظى مفاتيح ومغاليق ، وكذا بين الخير والشر وفى قول ابن مروان مقابلة بين الحمـد واللوم ، ومحبوب ومكروه ، وعجز وحـزم .

---

(١) سورة النبأ الايه ١٠ ، ١١

وفي قول الشاعر نراه قابل الليل بالصبح ، والشباب بالمشيب ، والحسن بالقبح ، والوصل بالهجر إذن فقد وقعت المقابلة بين أكثر من لفظين في كل ما سبق ، وهذا ما جرى العرف البلاغي على أطلاق المقابلة عليه ، وإن لم يخرجه ذلك عن باب المطابقة أصلا .

وعلى ذلك يمكن أن يقال تعريفا لها : أن يأتي المتكلم بمعنيين متوافقين ، أو معان متوافقة ، ثم يأتي بعد ذلك بما يقابل ما ذكره أولا على الترتيب .

فالفرق بين المطابقة والمقابلة على هذا كون المطابقة حاصلة بالجمع بين أمرين فقط ، بخلاف المقابلة فلا تكون إلا بالجمع بين أربع كلمات متقابلة أو أكثر .

كما أن أهل البلاغة والنقد قد نبهوا على وجوب الترتيب في المقابلة ، حيث يراعى مقابلة ما ذكر أولا فيأتي بما يقابله ثم بمقابلة ما ذكر ثانيا ، وهكذا . غير أن قدامة بن جعفر لم يشترط الترتيب ، فقد أورد قول الشاعر معتدا به في المقابلة :

أسرناهم وأنعمنا عليهم ... وأسقينا دماءهم الترابا

فما صبروا لبأس عند حرب ... ولا أدوا لحسن يد ثوابا

مع أنه يلحظ أن الشاعر هنا قدم ذكر الإنعام على المأسورين، وأخر ذكر القتل في البيت الأول ، وأتى في البيت الثاني بعكس ذلك الترتيب ، فقد قدم ذكر الصبر عند بأس الحرب وأخر الثواب على حسن اليد ، اللهم إلا أن يريد بقوله : (فما صبروا لبأس عند حرب) . القوم المأسورين إذا لم يقاتلوا حتى يقتلوا دون الأسر وإعطاء اليد ، فإن المقابلة حينئذ على شرط الترتيب (١) .

---

(١) العمدة ج٢ ص١٦

ومن معجز هذا الباب قوله سبحانه وتعالى : " ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله "(١) . فأنظر إلى مجئ الليل والنهار فى صدر النظم الكريم وهما ضدان ، ومجئ السكون والحركة فى عجزه ، وهما ضدان كذلك ، مع مقابلة كل طرف منه بالطرف الآخر على الترتيب ، وكيف أنه سبحانه قد عبر عن الحركة بطريق الكناية بما أضاف إلى الكلام ضربا من المحاسن زائدا على المقابلة حيث عدل النظم الكريم عن لفظ الحركة المقابلة للسكون إلى لفظ ابتغاء الفضل لكون الحركة كما تكون لمصلحة تكون كذلك لمفسدة ، وأما ابتغاء الفضل فهو حركة لمصلحة لا غير ، والآية الكريمة سيقت فى مقام الاعتداد بالنعم مما أقتضى العدول عن لفظ الحركة إلى ما يدل عليها لكن بما هو أنسب وأدل على الغرض الذى كان من أجله جعل آيتى الليل والنهار ، فحصل فى الكلام بهذا ضروبا من المحاسن ، ألا تراه - سبحانه - قد جعل العلة فى وجود الليل والنهار : حصول منافع الإنسان ، حيث قال : (لتسكنوا) و (لتبتغوا) بلام التعليل فجمعت هذه المقابلة والتعليل ، وحسن البيان لمجئ الكلام متلاحما آخذا أعناق بعضه بأعناق بعض ، وما تضمنته العبارة من النعم التى هى مع عظم شأنها بعض رحمته قرن هذا الكلام بحرف التبعيض : (ومن رحمته) .

ومن نماذج هذا الضرب من الكلام النبوى الشريف ولنأخذ نصا مما قاله عليه الصلاة والسلام فى تثقيف النفوس ، وتقويم الطبائع وكيفية مسته للقلوب وأخذها برفق صوب مدارج الكمال الإنسانى والسمو الروحى . من ذلك قوله عليه السلام : (ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجالسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطأون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، ألا أخبركم بأبغضكم إلى وأبعدكم منى مجالسا يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون) .

نرى الأسلوب فى هذا الحديث الشريف يقف وقفة يمهد فيها المقطع الأول وهو قوله ألا أخبركم ليستأنف بعد ذلك سبيل المقابلة فيذكر أبغضكم إلىّ فى مقابل أحبكم فى الشق

---

(١) سورة القصص الآية ٧٣

الاول ، ويذكر أبعدكم منى مجالسا فى مقابلة أقربكم منى ، ثم يذكر (الثرثارون المتفيهقون) ومقابلتهم بأحاسنكم أخلاقا الموطأون أكنافا ليست واضحة .

والثرثارون الذين يكثرون الكلام تكلفا وخروجا عن الحق ، وأصل هذه اللفظة العين الواسعة من عيون الماء ، ويقول المبرد فى لفظ المتفيهقون إنما هو بمنزلة قوله الثرثارون توكيدا له .

ولئن كان أسلوب المقابلة من الأساليب المحببة إلى النفوس حين يقود إليها الطبع ، فترد فى الكلام سمحة منسابة فتعين على تجلية الحقائق ، وإبراز معادنها فالقرب من مجلس رسول الله إنما يساعد على بيان أهميته وقيمته وجود الصورة المعاكسة وهو البعد والنبذ والتجافى وكذلك الحب ، ثم إن الموطئين أكنافا الذين يألفون ويؤلفون إنما تتجلى طبائعهم وجوهر أخلاقهم ورفق حديثهم ولين ألسنتهم وجلال سكونهم حينما يوجد فى الصورة المقابلة هؤلاء الثرثارون المزعجون المتشدقون والمتفيهقون (١) .

---

(١) قراءة فى الأدب القديم ص ٢٨٠

صور المقابلة

يلحظ على ما ذكروه متصلا بصور المقابلة أنها تقوم على الاعتبار العددى ، فقد تقابل الكلمتان بكلمتين ، أو الثلاثة بثلاثة ... وكذا . وعلى ذلك تكون صور المقابلة وتعددها بالاعتبار

وينبغى أن يشار هنا إلى أن الاعتبار العددى فى ذاته لا يعد الأصل الذى يبنى عليه بلاغة المقابلة واستحسانها أو عدم بلاغتها وردها على نحو ما تجده عند بعض النقاد والكاتبين ، فإن الأصل المعتبر دائما فى بلاغة الكلام توفيق المتكلم واهتداؤه إلى الصورة التى تمكنه من التعبير عن معانيه وأغراضه على أتم وجه .

وإذا كانت أساليب المقابلات فى الكلام من أسباب حسنه لما فيها من إيضاح معانيه وتجلية أغراضه ومقاصده على نحو مؤثر فى النفس ومستميل لها بما يستدعى منها القبول ، فذلك كله مشروط بأن تأتى على وفق الطبع دون تكلف ولا تزيد وإلا صار الكلام بها خربا وصار زخرفا من القول لا تحمل معنى ولا تنهض بغرض .

وبعد هذا نعود إلى ما قالوا أو نود ذكره وإيضاحه حول صور المقابلة . يقول سبحانه وتعالى : " مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع "(١) . المقابلة هنا بين أمرين . فالأعمى يقابله البصير ، كما أن الأصم يقابله السميع .

والغرض كما هو واضح بيان اختلاف حالى أهل الكفر والإيمان " فحال هؤلاء الكفرة حال العمى والصم وإن كانت لهم فى ظاهر الأمر أعين وآذان ، حيث لم يهتدوا بها إلى طريق الهدى كما لم يستجيبوا لداعى الإيمان وعلى خلاف ما كان عليه حال فريق الإيمان فقد استمعوا فأستجابوا واهتدوا ، فكانوا بذلك جديرين بالبصر والسمع حيث أنتفعوا بهما النفع الحقيقى الذى يعود عليهم بخيرى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة هود الآية ٢٤

وقد يقال لم آثر النظم الكريم التعبير عن هذا المعنى بطريق المقابلة دون أسلوب الطباق وذلك بأن يقال : مثل الفريقين كالأعمى والبصير ، والأصم والسميع ، فيكون التركيب جامعا لطباقين .

والجواب عن ذلك على ما يذكر الزركشي : أنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، وبضد ذلك لما ذكر انفتاح البصر أعقبه بانفتاح السمع . فما تضمنته الآية الكريمة هو الأنسب في المقابلة والأتم في الإعجاز (١)

ومما يجري على هذا كذلك نظير قوله تعالى : " فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا .. " (٢) فقد قوبل أولا الضحك بالبكاء ، كما قوبلت القلة بالكثرة .

ويقول صلى الله عليه وسلم في مدح الأنصار رضوان الله تعالى عليهم : إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع . فقابل عليه السلام بين الكثرة والفزع بالقلة والطمع والغرض بذلك وصف الأنصار بالإخلاص في الإيمان والنهوض بأعبائه والعمل على مقتضياته في غير التفات إلى تحصيل منافع خاصة . فهم لم يدخلوا الإيمان تطلعا إلى تحقيق أغراض مادية على نحو ما كان الحال عند أمثال المنافقين أو غيرهم من أهل الكتاب ممن تظاهروا بالإسلام رغبة في الحصول على نفع . وإنما هؤلاء الأنصار أقبلوا على الإيمان بخلوص نية وسلامة قصد وحسن يقين فاستحقوا بذلك ما تضمنه هذا القول الشريف .

ومن المقابلة على هذا النحو كذلك : قول خالد بن صفوان يصف رجلا : ليس له صديق في السر ، ولا عدو في العلانية .

---

(١) البرهان جـ ٣ ص ٤٦٦

(٢) سورة التوبة الآية ٨٢

ومن شواهدهم شعرا لهذا الضرب قول الشاعر يمدح من جمع من الرجال إلى وصول النفع منه لمن يصادق أو يحب تحقق الضرر منه لمن يبغضه أو يعادى لفرط قوته وشجاعته :

فتى تم فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

وقد حصل بالمقابلة بين " يسر صديقه ، ويسوء الأعاديا " ، تمام الغرض الذى قصد إليه من وصف ممدوحه بالجمع بين وصفى الكرم والشجاعة .

ويقول آخر واصفا نفسه بسماحة الطبع وبالغ الكرم :

ويبقى بعد حلم القول حلمى ... ويفنى قبل زاد القوم زادى

فقابل بين أمرين وأمرين ، حيث قال أولا يفنى بعد ، وبعده قال : يبقى بعد .

ومن شواهد مقابلة الثلاثة بالثلاثة قول الشاعر :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا .. وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

يحكى أن أبا جعفر المنصور سأل أبا دُلامه عن أشعر بيت قالته العرب فى المقابلة ، فقال بيت يلعب به الصبيان وأنشد هذا البيت ، وينقل عن صاحب بديع القرآن أنه لا خلاف فى أنه لم يقل قبله مثله فإنه قابل بين أحسن وأقبح ، والدين والكفر ، والدنيا والإفلاس وهو من مقابلة ثلاثة بثلاثة (١) .

ولا ريب فى أن هذا حكم لا يتيسر إقراره أو قبوله على هذا الإطلاق والتعميم بل إن هذا البيت نفسه يخرج عن باب المقابلة أصلا عند السكاكى حيث ألزم عند ذكر شرط مع أحد

---

(١) معاهد التنصيص ج ٢ ص ٢٠٧

طرفى المقابلة ذكر مقابلة مع الطرف الآخر منها أيضا (١). وقد اشترط مع الدين والدنيا الاجتماع ، ولم يشترط فى الكفر والإفلاس ضده .

وأما ماكان على مثال قول أبى نواس :

أرى الفضل للدنيا وللدين جامعا .. كما السهم فيه الفوق والريش والنصل

فيذكر بن رشيق أن الشاعر هنا قد زاد فى المقابلة قسما لأنه قابل اثنين بثلاثة (٢).

والشاعر إنما يقصد أن الممدوح قد جمع بين الدين والدنيا ما ينتفع به ، وما لابد للعاقل المكلف منه ، كما يجمع طرفا السهم مالاغنى للسهم عنه ، لأن الفوق موضع الوتر ، والريش : الموصل ، والنصل : المُضى ، فشبه الممدوح بالسهم الجامع لمصالح الطرفين ، ولما كان الريش والفوق فى طرف واحد كانا مقابلين للنصل ، إذ هو الطرف الآخر ، ولايضر تعدده ، فهو يريد الطرف الجامع لهما ، على أن الإخلال بصحة التقسيم فى ظاهر اللفظ لايفسد المقابلة ، فرب كلام وقع فى ظاهر لفظه إخلال بحصر أقسامه لكون أحد الأقسام مذكورا دون أن يصرح بذكر مايقابله مع أنه مراعى من حيث المعنى كما هنا حيث قابل الدنيا والدين وهما طرفان بطرفى السهم ، وهما الفوق والنصل وترك الريش فى ظاهر اللفظ دون مقابل .

ومن معجز المقابلة بين أربعة ما جاء فى قوله سبحانه وتعالى : "فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى" (٣).

والمقابلة فى هذا النظم الحكيم حاصلة بين من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وتيسره لليسرى وبين من كان الأمر معه على الخلاف ، وهو من بخل واستغنى وكذب بالحسنى

---

(١) المفتاح ص ٢٢٥
(٢) العمدة ج ٢ ص ١٨
(٣) سورة الليل من الآية ٥ إلى الآية ٩

فكان له التسير للعسرى ، وقد تكون بين خمسة وخمسة كقول الشاعر :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى ... وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وفى توضيح ذلك قالوا : إن الشاعر قابل بين أزورهم وأنثنى ، وسواد وبياض ، والليل والصبح ، ويشفع ويغرى ، ولى وبى .

والمعنى :

أزور أحبتى فى حماية الليل ، وأعود تحت وشاية ضوء الصبح . ففى كل من يشفع لى ويغرى بى استعارتان مكنيتان كما ترى .

ومن مقابلة ست بست : قوله تعالى : " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا " ثم قال تعالى : " قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله "(١). قابل الجنات والأنهار والخلد والأزواج والتطهير والرضوان بإزاء النساء فى الدنيا ، وختم بالحرث وهما طرفان متشابهان ، وفيهما الشهوة والمعاش الدنياوى ، وأخر ذكر الأزواج كما يجب فى الترتيب الأخروى ، وختم بالرضوان . وقد ذكروا لهذه الصورة من المقابلات قول الشاعر ، وإن يرى عليه شىء غير قليل من التكلف :

على رأس حر تاج عز يزينه ... وفى رجل عبد قيد ذل يشينه

فإن كل كلمة فى الشطر الأول لها مقابل فى الشطر الثانى .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤ ، ١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

((التورية))

يقول الله سبحانه وتعالى (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) . بالنظر إلى لفظ (بأيد) فى الآية الكريمة : ترى أن لها معنيين : فالمعنى القريب الظاهر والمتبادر أنه جمع يد ، أى : الجارحة ، لكن حمل المراد على هذا الظاهر حمل على غير المراد لأدائه إلى المحال فى حقه تعالى ، وأما المعنى الثانى : فهو القوة والسلطان ، وهذا وإن كان بعيدا فى العرف والاستعمال عن المعنى الأول إلا أنه المراد هنا لكونه اللائق بحقه تعالى ، ومثل هذا لا يطلق عليه فى العرف البلاغى التورية أو الإيهام ، كما يذكر الكسائى والخطيب وتسمى التخييل والمغالطة والتوجيه على ما أورد صاحب البرهان مما لا يدخل فى غرضها الآن تحقيقه وإيثار الأنسب .

فالتورية إذن أن يطلق لفظ له معنيان : قريب ، وبعيد . ويراد به البعيد منهما ، هذا حد صاحب الإيضاح ، غير أنه ينبغى الإشارة إلى أنه لا يلزم فى هذا الباب أن يكون للفظ معنيان فقطـ بل يدخل فيه أيضا ما كان له أكثر من معنيين ، والتورية فى الأصل مأخوذة من الوراء ، فالمعنى القريب لسرعة إدراكه قبل البعيد يكون له كالحجاب ، فيظهر من ورائه للطفه بصورة الوجه المبرقع الجميل ، يفهم وجه الصلة بين المدلول اللغوى والمقصود الاصطلاحى .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناعمة) يراد بها فى نعمة وكرامة ، والسامع يتوهم أنه أراد النعومة ، وقوله تعالى أيضا (يطوف عليهم ولدان مخلدون) ، فالمتبادر الظاهر للفظ (مخلدون) أنه من الخلود ومع أن هذا السابق إلى الأذهان لكنه غير مراد إذ المقصود على ما يذكر أهل العلم : أى بلفظ (مخلدون) هنا أى : مقرطون تجعل فى آذانهم القرطة، والحلق الذى فى الأذن يسمى قرطا وخلدة .

وكذلك قوله تعالى : (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات ..) فذكر لفظ (رضوان) مع الجنات ربما يتبادر معه أن المراد به خازن الجنة مع أن المقصود في الحقيقة ما يكون تمام الرضا والفضل من الله تعالى على هؤلاء المبشرين بالجنة .

وذكروا أن من هذا الباب أيضا قوله تعالى : (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد) فقوله (الولى) هو من أسماء الله ومعناه الولى لعباده بالرحمة والمغفرة ، وقوله (الحميد) يحتمل أن يكون من (حامد) لعباده المطيعين ، أو (محمود) في السراء والضراء ، وعلى هذا فالضمير راجع إلى الله سبحانه . ويحتمل أن يكون الولى من أسماء المطر ، وهو مطر الربيع ، والحميد بمعنى المحمود ، وعلى هذا فالضمير عائد على الغيث ، ومن التورية كذلك قوله تعالى : (اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه) ، فإن لفظة (ربك) رشحت لفظة (ربه) لأن يكون تورية ، إذ يحتمل أن أراد بها الإله سبحانه والملك ، فلو اقتصر على قوله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) ، ولم تدل لفظة (ربه) إلا على الإله ، فلما تقدمت لفظة (ربك) احتمل المعنيين .

هذا وينبغى التنبيه إلى أن المعنيين أو المعانى المفادة من اللفظ قد تكون كلها حقيقة ، كما قد تكون من باب المجاز ، ولا مانع من كون بعضها حقيقة ، وبعضها مجاز ، كما ينبغى التنبيه أيضا على أنه لابد فى التورية من قرينة تمنع إرادة المعنى القريب وتومئ إلى المراد .

أقسام التورية :

ذكروا أن التورية ترد على ضربين :

الأول : وتسمى المجردة ، وهى التى لا تجامع شيئا مما يلائم المورى به ، وهو المعنى القريب ، ومن هذا الضرب قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) فالمعنى القريب للفظ استوى : استقر وجلس ، وهذا غير مراد قطعا بقرينة استحالة

مثل هذا فى جانب الله تعالى ، والمعنى البعيد المراد : استولى وملك وهيمن وربما قيل إن التورية هنا مرشحة لأن قوله تعالى (على العرش) مما يلائم المعنى القريب ، وهذا ما يقع به الترشيح على ما سيتضح ٠

الضرب الثانى : وهى التورية المرشحة التى قرن بها ما يلائم المورى به ، وهو المعنى القريب كما سبق الإشارة إلى ذلك سواء كان لازم الملائم واقع قبل لفظ التورية أو بعدها كقوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد) ذكر قبل لفظ التورية كلمة بنيناها ، التى تناسب المعنى القريب غير المراد هنا وهو الجارحة ، إذ أن المعهود فى البناء أن يكون بها على هذا المعنى ٠

وأما قول الشاعر فى حال صيف بارد :

كأن كانون أهدى من ملابسه ∴ لشهر تموز أنواعا من الحلل
أو الغزالة من طول المدى خرفت ∴ فما تفرق بين الجدى والحمل

والتورية المرشحة فى لفظ الغزالة ، فإن معناها القريب الظبية ، والمراد منها الشمس هنا وقد قرنت بما يلائم القريب وهو قوله ـ خرفت ـ وكذلك ذكر الجدى والحمل بعدها ٠

وما يعنيه الشاعر هنا التعليل والتبرير لبرودة الصيف على غير المعهود والتمس لذلك أحد أمرين فإما أن يكون شهر كانون وهو أحد شهور الشتاء فى السنة الشمسية المقابل لشهر يناير للتقويم الميلادى ، قد منح شهر تموز الذى هو أحد شهور الصيف بالتقويم الشمسى ، والمقابل لشهر يونيو بالتقويم الميلادى ، شيئا من برده ، وأن الشمس التى هى مصدر الحرارة قد خرفت عقلها بحيث لم تعد تفرق بين شهور الصيف وشهور الشتاء فاختلط الأمر وحل البرد صيفا لهذا ٠

التورية والاستخـــــــدام :

قد يلتبس الأمر بين التورية والاستخدام باعتبار أن اللفظ معهما دال علـــى أكثر من معنى غير أن الفرق بين الضربين واضح تماما من حيث الاستعمال فالتوريـة على ما مر يقصر المراد على معنى واحد فقط وهو البعيد ، وأما الاستخدام فكـــلا المعنيين يدخلان في مراد المتكلم ويقصد إليهما معا ولكل منهما القرينـــــــة الدالة ، ونظير هذا الأسلوب قوله تعالى : (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حـتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابرى سبيل ٠٠) فإن الصلاة تحتمل إرادة نفـس الصلاة ، وتحتمل إرادة موضعها فقوله : (حتى تعلموا) استخدمت إرادة نفـس الصلاة ، وقوله : (إلا عابرى سبيل) استخدمت إرادة موضعها - والله أعلم -

+++++++++
+++
++
+

الجنـــــاس

يقول الله سبحانه وتعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثـــوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكـــون) الآية الكريمة تكشف وجها آخر من وجوه صـرف المجرمين الحق عن وجهه ، فعند وقوع القيامة يقسم هؤلاء أنهم ما مكثوا في قبورهم ساعة ، وكأنهم استقلوا ما مضى بهم من زمان بين موتهم وإقبارهم وبعثهم وذلـك جهل منهم أو تمويه وكذب والمهم أنك ترى لفظ الساعة وقد ورد ذكره هنـــا مرتين غير أنه من وراء كل منهما معنى خاص به يغاير الآخر فلفظ الساعـــة الأولى من إعلام القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيـــا أو لأنها تقع بغتة ، وصارت علما لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة ونحوه وأمـــا لفظة الساعة الواقعة بعد ذلك فمراد بها وقت من الزمان معين .

وقد اصطلح البلاغيون على تسمية ما كان على هذا النحو بالجناس أو التجنيس وهو في أصل اللغة : تفعيل من التجانس وهو التماثل ، وإنما سمى هذا النـــوع جناسا لأن التجنيس الكامل أن تكون اللفظة تصلح لمعنيين مختلفين ، فالمعنى الذى تدل عليه هذه اللفظة هى بعينها تدل على المعنى الآخر من غير مخالفـــة بينهما ، فلما كانت اللفظة الواحدة صالحة لهما جميعا كان جناسا ، فالجنس فى اللغة هو الضرب من الشئ وهو أعم من النوع ، والمجانسة المماثلة ، وسمى هذا النوع جناسا لما فيه من المماثلة اللفظية .

والمراد به عند أهل البلاغة : أن تتفق اللفظتان فى وجه من الوجـــــوه ويختلف معناهمـــــا .

بلاغة الجناس :

يقول صاحب الطراز فى شأن هذا الضرب من الكلام وهو من ألطف مجارى الكلام ومن محاسن مداخله ، وهو من الكلام كالغرة فى وجه الفرس وينقل البهاء السبكى عن صاحب كنز البلاغة أن فائدة هذا الضرب استمالة السامع إلى الإصغاء إليه ، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها ، ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق إليه ، ولا ريب فى أن المتكلم إذا راعى هاتين الفائدتين-إمالة السامع وإصغائه وتشوقه واستشراقه-فقد راعى موجبات البلاغة وتوخى مقتضيات الأحوال وتلك هى البلاغة ، وبهذا يتضح أن الأمر ليس مجرد جمع بين لفظين متحدين أو متماثلين أو متقاربين على أى نحو كان وكيفما اتفق وإنما ذلك الجمع يأتى فى الكلام لإفادة معنى وتحقيق غرض وإن كان ذلك على ضرب خاص فيه لطافة ، كما أن له أثرا فى تحصيل المعنى ووقوعه فى ذهن ونفس السامع أحسن موقع ، وقد سبق أن أبان شيخ البلاغيين عبد القاهر عن قيمة هذا الضرب وأثره وحسن موقعه على طريقته الكاشفة عن غايات الضروب ومغزى الكلام البليغ وأسلوبه الدال على بصره بمتصرفات اللغة وخصائص الأساليب .

يقول عبد القاهر فى أثناء احتجاجه للمعانى على الألفاظ (وها هنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة وقبل إتمام العبرة أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجى فيه العقل النفس ولهما إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ومنصرف فيما هنالك منها التجنيس والحشو ـ أما التجنيس فإنك لا تستحسن اللفظتين ، إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ، لااتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله يمدح :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت ... فيه الظنون أمذهب أم مذهب

كما يستحسن قول الآخر :ـ

ناظراه فيما جنى ناظراه ... أو دعانى أمت بما أودعانى

وذلك الضعف فى البيت الأول ، وهذا الاستحسان فى الثانى ليس مرده الى أمر اللفظ بل لأنك ترى الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى ، فانك لم تراه قد زادك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة تجهد نفسك فى أن تجد لها فائدة ثم انك لا تقع من بعد ذلك منها على ما أراد ، ثم انك ترى الثانى وقد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفا لها .

وبهذا يظهر ويتأكد وجه حسن هذا الضرب وبلاغته وأن مرد الحسن والفضيلة معه تعود الى المعنى لا الى اللفظ كما قد يظن البعض أو يوهم ذلك مما يلتبس معه الأمر حين نرى من يجعلون الجناس أفضل مثال يصور طريقتهم فى دراسة ألوان البديع وأن منه ما يكون التحسين معه مرده الى اللفظ بالذات ، فالجناس عندهم معدود من نوع المحسنات اللفظية بل هو رأسها وأنموذجها

ولا ريب فى أن ذلك قد ألبس مما كان له أثر ضار على دراسة وفهم أمثال هذه الضروب ، ففائدة التجنيس ونكتته عند عبد القاهر كما يقول (هى حسن الافادة مع أن الصورة صورة التكرير والاعادة وان كانت لا تظهر ظهورا قويا الا فى التجنيس المتفق الصورة منه ، غير أن هذا لا يمنع من ظهوره فى ضروب أخرى ، لأن العبرة كما نحرص على تأكيد ذلك دائما أحوال الكلام وأغراض أصحابه ، وهذا يكشف دون شك عن خصوصيات ودواعى تلائم أحوال الكلام .

أقسام الجناس :

والجناس تام وغير تام ، ولكل منهما أنواع عديدة ومختلفة بحسب عدد الحروف المشترك فيها اللفظان وترتيبها وهيئاتها ، وبحسب نوع الحرف كذلك ، ولكن نقتصر فى هذا المقام على ما هو الأهم والأكثر استعمالا والأظهر بلاغة .

الجناس التام :

ويراد بالجناس التام ما يتفق فيه اللفظان اتفاقا تاما ، من حيث نوع الحروف وعددها وترتيبها وهيئتها ، ولا يختلفان إلا من حيث المعنى ، فإن كان اللفظان من نوع واحد باعتبار الاسمية أو الفعلية سمي الجناس حينئذ المماثل . وشاهده في القرآن الكريم ما سبق ذكره بقوله تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة .....) حيث ترى الجناس بين لفظ الساعة وساعة وقد اتفق اللفظان في نوع الحروف وعددها وترتيبها وهيئتها ، ولهذا عد من نوع المتماثل لاتحادهما في الاسمية وقد ذكروا أنه لم يقع في القرآن من الجناس التام المتماثل سوى هذه الآية الكريمة ، ومن السنة النبوية قوله — صلى الله عليه وسلم — لما نازع الصحابة جرير بن عبد الله في أخذ زمام ناقة الرسول — صلى الله عليه وسلم — أيهم يقبضه ، فقال عليه الصلاة والسلام خلوا بين جرير ، والجرير فجرير علم على الرجل والجرير للناقة ، ولا يقال كيف يعد الجناس في الآية الكريمة والحديث الشريف من الجناس التام المتماثل مع اختلاف اللفظتين بالتعريف والتنكير لأن التغاير هنا واقع بلام التعريف ، وهذه مزيدة ، وما هذا حاله فليس مغيرا للتشهيل .

وما يستشهدون به لهذا الضرب شعرا قول أبي تمام :—

فأصبحت غرر الأيام مشرقة ... بالنصر تضحك عن أيامك الغرر

وقد عد ذلك أيضا من الجناس التام المتماثل مع أن الأول مضاف ، والثاني معرف باللام ، ومنه قولهم : لولا اليمين لقبلت اليمين ، فاليمين الأولى الألية ، واليمين الثانية هي الجارحة .

ومنه قولهم : ما ملأ الراحة من استوطن الراحة ، فالراحة الأولى هي الجارحة ، والراحة الثانية هي نقيض الشقاء .

وقد أكثر أبو تمام في شعره من هذا الضرب وأحسن فيه نظير قوله :—

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدّعوا ... صدور العوالي في صدور الكتائب

قوله - جابت : بمعنى خرقت ، والقسطل : الغبار الساطع فى الحرب ٠
صدعوا : بمعنى أمالوا ٠ والعوالى : الرماح ، والجناس بين صدور العوالى بمعنى أعاليها وصدور الكتائب بمعنى نحورها ٠

وأما إن اختلف اللفظان بمجئ أحدهما اسما والآخر فعلا فيسمى بالمستوفى وهذا هو الذى أشار إليه عبد القاهر فى كلامه وكشف عن وجه بلاغته ونظيره قول أبى تمام :-

ما مات من كرم الزمان فإنه ٠٠ يحيا لدى يحيى بن عبد الله

حيث جاء بين يحيا ويحيى ، والأول فعل من الحياة ، والثانى علم ٠

الجناس الناقص :

وذلك بأن تكون فى إحدى اللفظتين زيادة على الأخرى سواء أكانت الزيادة بحرف أو أكثر ، وسواء كان المزيد أول الكلمة أو وسطها أو آخرها مع اشتراك الكلمتين فى أصل واحد ، ومن ذلك قوله تعالى : (والتفت الساق بالساق ٠ إلى ربك يومئذ المساق) فالجناس فى الآية الكريمة كما ترى بين لفظين ساق ومساق ، ولا اختلاف بين اللفظتين إلا بزيادة ما أول اللفظة الثانية ، وأما نظير قولهم : جدى جهدى فقد لحقت الزيادة وسط اللفظة الثانية ٠

ونحو قول أبى تمام :-

يمدون من أيد عواص عواصم ٠٠ تصول بأسياف قواض قواضب

ففى البيت جناسان الأول بين عواص وعواصم ، والثانى بين قواض وقواضب ، وكلاهما من الجناس الناقص ، وقد لحق حرف الزيادة آخر اللفظة الثانية ٠

الجناس المحرف :

وذلك إذا كان الاختلاف بين اللفظتين ، الجناس باعتبار الشكل والهيئة ، ومنه قوله تعالى : (ولقد أرسلنا فيهم منذرين ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) ، قال السكاكي وكقولك الجهول إما مفرط أو مفرط . والمشدد في هذا الباب يقوم مقام المخفف نظرا إلى الصورة فاعلم .

وقد يكون في الحركة والسكون ، كقولهم - البدعة شرك الشرك - وقول أبي العلاء :-

والحسن يظهر في بيتين رونقه ∴ بيت من الشعر أو بيت من الشعر

وهناك أنواع أخرى عديدة للجناس ، غير أننا قصرنا الحديث في هذا المقام على ما نعتقد أنه أهم ، والفائدة به أتم .
والله الموفق معاً .

++++++++++++++++++

الحذف فن عظيم من فنون القول، ومسلك دقيق فى التعبير وتأدية المعانى، ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر. والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة. وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم بياناً إذا لم تبن.[1]

وفى طبع اللغة أن تسقط من الألفاظ ما يدل عليه غيره ، أو ما يرشد إليه سياق الكلام أو دلالة الحال، وأصل بلاغتها فى هذه الوجازة التى تعتمد على ذكاء القارئ والسامع ، وتعول على إثارة حسه ، وبعث خياله وتنشيط نفسه ، حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة ويفطن إلى معانى الألفاظ التى طواها التعبير.[2]

شروط الحذف :

كل حذف لابد فيه من شرط وسبب ...

- **أما الشرط** فقد أجمعوا على أن الحذف لا يصار إليه إلا إذا بقيت فى الكلام قرينة تدل على المحذوف ..حتى لا يصبح البيان ضرباً من التعمية والغموض ، لأن شرط جودة الأسلوب الوضوح وحسن الدلالة . وهذا الشرط ضرورى لا يحمد إغفاله، لأن الحذف إذا لم يكن فيه ما يدل على المحذوف – ويعينه أحياناً–**جار على اللفظ والمعنى .**

- وأما السبب فهو الأمر الذى يدعو المتكلم إلى ترجيح الحذف على الذكر. أو وجوبه. إذا كان أدل على فخامة المعنى . وسعة تصوره فى بعض المواضع. وفى هذا –أعنى الداعى إلى الحذف–يكمن السر الجمالى فى التعبير لكونه مظهراً من مظاهر مقتضى الحال. ، والتصرف فى إلقاء الكلام.

---

(١) خصائص التعبير القرآنى أ.د/عبدالعظيم المطعنى جـ٢ ص٥

(٢) خصائص التراكيب أ.د/محمد أبو موسى ص١١١

ومظاهر الحذف فى القرآن الكريم كثيرة جدا [١] وإن لوحظ عنايــة البلاغيين أكثر بحذف المفعول به فى النظم القرآنــى واستنباطهم مـن حذفـه أسـرارا وأغراضا كثيرة.

ضروب الحذف فى القرآن الكريم:

ومع كثرة ضروب الحذف فى القرآن الكريم وتعدد مظاهره إلا أنه يمكــن أن يقال على سبيل الإجمال إن الحذف يأتى فى الحرف، كما يتناول الكلمة، وكذلـك يكون فى الكلام سواء كان جملة واحدة ، أو أكثر من جملة.

أولا : الحرف :

يرد الحذف فى الحرف سواء أكان الحرف مستقلا جيئ به لإفـادة معنـى خـاص كنداء، أو عطف أو نفى ، أم كان من بنية الكلمة ذاتها.

أ) **يحذف حرف النداء : (يا)** فى القرآن الكريم كثيرا، حيث لم يأت فـى القـرآن الكريم أداة نداء سواه، ولأن العلماء صرحوا بأن أداة النداء إذا حذفت وجـب أن يقدر المحذوف (يا) لأنها أم الباب. وقد جرى عرف الاستعمال القرآنـى علـى إيثار حذف أداة النداء (يا) مع لفظ رب إلا فى موقعين ، أحدهما قوله تعـالى : (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مـهجورا)[٢].والثـانى قولـه تعالى :(وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون)[٣].

وإن أشار الأستاذ الدكتور/ أحمد بدوى إلى أنه لم يعثر إلا على آيـة الزخـرف مما ذكر معه حرف (يا)[٤]. وقد اهتدى الدكتور بدوى إلى تعليل مقبـول لسـر حذف أداة النداء (يا) مع (رب) إذ يرى أن سر الحذف فيه للمبالغة فى تصويـر

---

(١) خصائص التعبير القرآنى أ.د/عبدالعظيم المطعنى جـ٢ ص٦
(٢) سورة الفرقان الآية ٣٠
(٣) سورة الزخرف الآية ٨٨
(٤) من بلاغة القرآن ص١٦٩

قرب المنادى (رب) حيث إن معناه: المربى والسيد والمالك. وهو بهذه المعانى من شأنه أن يكون قريباً حاضراً لا يحتاج إلى وسائط.

ويبقى أن نلتمس تعليلاً لإيثار ذكر (يا) فى بعض المواضع فنقول والله أعلم: لعل الغرض من وراء ذكر (يا) فى موقع الفرقان لملائمة ذلك لخصوص الغرض ، حيث كان القصد التعبيرى عن معنى الشكاية من الرسول ﷺ إلى ربه سبحانه وتعالى لما صار إليه حال قومه من هجران القرآن الكريم سلوكاً وتطبيقاً مع كونه ماثلاً وموجوداً بينهم فناسب ذلك الغرض الإتيان بـ(يا) لما فيها من امتداد الصوت الملائم للجهر والشكاية والاستغاثة من تلك الحال التى كأنه - ﷺ - قد تنبأ بها حيث هى الآن واقعة حاصلة.

ويضيف الأستاذ الدكتور / عبدالعظيم المطعنى وجهاً آخر لحذف (يا) مع لفظ رب فيقول: "إن هذه الكلمة (رب) أكثر استعمالاً من غيرها فى الدعاء. فروعى فيها من جهات التحقيق ما يجعلها أطوع فى الألسنة . وأسهل فى مجارى الحديث"[1].وقد ورد حذف (يا) فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة أخرى نظير قوله تعالى: (يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك) والأصل: يا يوسف ، فالشاهد إذن حذف حرف النداء وله هنا رمز لطيف وكأنه يهمس بهذا الخبر فى أذن يوسف محاذراً أن يسمعه أحد ، ثم فيه تقريب وملاطفة ليوسف عليه السلام وإيماء خفى بأن الخبر كله يجب أن يضمر فى السرائر ، وألا يجرى به لسان.

ب) حذف الواو وذكره:

ومنها قوله تعالى فى شأن أهل النار: (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات

---

(١) خصائص التعبير القرآنى أ.د/عبدالعظيم المطعنى جـ٢ ص٨

ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) . فى هذه الآية حذف حرف الواو وقيل (فتحت) بدليل ذكرها فى موضع آخر مماثل لهذا الموضع. وهو قوله تعالى فى شأن أهل الجنة: (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم؛ فادخلوها خالدين) .

دلالة هذا الحذف:

الواو -إذن- محذوفة فى الموضع الأول. مذكورة فى الموضع الثاني. فما السر فى الحذف هناك والذكر هنا؟ وما الذى ترتب على الحذف والذكر من تغيير فى المعنى وفى الإعراب؟

لقد كان لهذا الصنيع أثره فى الموضعين ويمكن تلخيصه فيما يأتى :

١- حذف الواو فى الآية الأولى محض ما بعدها للشرط . فأصبح جواباً لـ (إذا) أما ذكرها فى الثانية فقد حمى ما بعدها أن يقع جواباً للشرط.

٢- والحذف فى الأولى دل على أن أبواب جهنم فتحت حين جاءوها ،لأن (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان و(فتحت) جوابها ، والذكر فى الثانية دل على أن أبواب الجنة كانت مفتحة قبل أن يأتوها . فلماذا إذن كانت أبواب جهنم مغلقة ثم فتحت حين جاءوها ، وأبواب الجنة مفتحة قبل أن يأتوها ؟[1]

وبعض أهل العلم يوجه الواو هنا على ما يعرف بواو الثمانية فأبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار ودركاتها سبعة، على نحو ما فى قوله تعالى: (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ...) الآية الكريمة . فقد جاء (رابعهم) و (سادسهم) بعد (ثلاثة) و

([1]) خصائص التعبير القرآنى جـ٢ ص١١ ، ١٢

(خمسة) بدون واو .. ثم خولف فى (سبعة) هذا النسق . حيث عطف عليها (ثامنهم) بالواو . والمواضع الثلاثة متماثلة .

ومنها قولـــه تعـــالى : (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) . وعدوا منها – كذلك : (ثيبات وأبكاراً) ثامن كذلك.

رد ابن المنير على هذا الرأى :

وقد شنع ابن المنير على من يقول بواو الثمانية هذه ولم يرضه . وناقش أدلتـــهم وانتهى من المناقشة بأن مازعموه من وجود واو ثمانية فى اللغة العربية غير مسلم. وأن كل واو جاءت فى موضع مما يستدلون به هي لغير ما يرون . فـــالواو فـــى : (والناهون عن المنكر) للربط بين الصفتين المتعاطفتين . ويؤيد رأيـــه بـــأن هـــذه الواو صاحبت هاتين الصفتين فى جميع استعمالاتهما مثل :(وأمر بالمعروف وانـــه عن المنكر) و(يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) والواو فى قولـــه تعـــالى : (ثيبات وأبكاراً) للتقسيم . ولو حذفت لذهب المعنى المراد[1].

ج) حذف لا :

ومن ذلك قوله تعالى فى حكاية قول أخوة يوسف لأبيهم (تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا) والأصل لا تفتأ تذكر يوسف حتى تفنى وتبلى ، والحرض مـــا لا يعتد به . قال ابن أبى الإصبع : إنه سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنســـبة إلـــى أخواتها فإن والله وبالله أكثر استعمالا وأعرف عند الكافة ، ولذلك أتى بعدها بأغرب ألفاظ الهلاك وهى لفظة الحرض .

---

(١) خصائص التعبير القرآنى أ.د/عبدالعظيم المطعنى جـ٢ ص١٣، ١٤

وهذا السياق الذى تتزاحم فيه الكلمات الغريبة مشيعة جو الغرابة والوحشة مناسب لمقصودهم الذى يريدون حمل أبيهم عليه فهم يريدون أن ينسى يعقوب عليه السلام ولده ، وليس فى مخالفة المألوف أدل من هذا وحذف حرف النفى وهو خلاف الأصل يأتى متلائما مع هذا السياق الغريب ويرمز فى خفاء إلى حاجتهم ، وهى نسيان يوسف وإبعاده من قلب أبيهم الذى ضاق بهم وتولى عنهم من أجل يوسف .

وأما حذف الحرف الذي هو من بنية الكلمة فنظير ما يقال في قوله تعالي عن أهل النار حين اشتد عليهم العذاب :(ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) على طريق الترخيم بحذف الحرف الأخير من مالك ، قالوا إنهم لشدة ماهم فيه عجزوا عن تمام الكلام ، وهذه علة بلاغية لأنها تشير إلى ما وراء هذا الحذف من ضيق الصور وغلبة اليأس ومعاناة شغلتهم عن اتمام الكلمة.

ثانيا: جريان الحذف والذكر في الكلمة

ويجري هذا في المسند أو المسند إليه أو القيود والمتعلقات . فمما ورد من ذلك الحذف والذكر في المسند إليه قوله تعالي في شأن الطاغية فرعون حين استفتى قومه في أمر موسى عليه السلام – فقالوا (ساحر كذاب) فقد طووا ذكر المسند إليه فلم يوردوا لموسى عليه السلام– ما يعود إليه أو يشير إليه بعلمه الخاص ولا باسم إشارة وذلك يدل على مدى نفرتهم منه وعدم الرغبة في جريانه على لسانهم فناسب الحذف هنا هذا المعنى، وأما قوله تعالى : (ما تلك بيمينك يا موسى. قال هى عصاى اتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى) فقد آثر النظم الكريم ذكر المسند إليه(هى) لأن المقام هنا يستدعيه حيث كان الحديث حواراً بين موسى عليه السلام وبين ربه ومثل هذا المقام دون ريب يقتضى إطالة الكلام وبسطه ومن هنا نلحظ كيف أن موسى عليه السلام قد أورد فى جوابه ما لم يسئل عنه أصلاً

حتى لكأنه يرجو السؤال فيجيب بما يحقق له مقصده من إطالة أمد هذا اللقاء وتلـــك المحاورة .

وفى قوله ﷻ (قل هو الله أحد الله الصمد) نلحظ إيثار ذكر المسند إليه وهــو لفظ الجلالة الأعظم (الله) وذلك لأن الغرض والسياق هنا يستدعيه مــن حيــث إن المقصد من هذه السورة الكريمة بتمامها إثبات معنى الوحدانية الخالصـــة لله تعـــالى وتأكيد استحقاقه تعالى بأوصافه المتفرد بها- ا ﷻ - عـــن ســائر مــاعداه ، فاقتضى هذا التنصيص صراحة باسمه الأعظم لغرض توكيد هذا المعنـــى المــراد، وهذا على خلاف ما عليه الحال في مثل قوله تعـــالى : (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) فقد حذف المسند إليه هنا لاقتضاء الغرض ذلك فإن المتحدث به وهو أمـــر الغيب مما لا ينصرف لسوى الله تعالى ، إذ هو من أموره سبحانه المتفرد بها ، فــلا يشاركه سبحانه فيها أحد ، فلتعينه في الذهن حذف المسند إليه فى مثل هذه السياقات ومن حذف المسند قوله تعالى : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم . .) فقد حذف المسند ، إذا المعنى كمن أضله الله ، والغرض الرمــز إلى مدى قبح وشناعة هذا الفريق حتى لكأنه لا ينبغى أن يقرن فى الحديــث بذلــك الفريق الذى أنعم الله عليه بشرح الصدر وأما قوله تعالى : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) فقد ذكر المسند اليه وهو الفريق الفاسق لأن المقصود نفـــى المساواة بينه وبين الفريق المؤمن على ما هو وارد فى صريح النظم الكريم .

وكثيراً ما يحذف فى النظم الكريم الأجوبة كجواب لو ولولا لغرض ومعنـــى نظير قوله تعالى: (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى . .) أى لكان هذا القرآن ، والحذف هنا يشعر بتعين الجواب فى الذهن إذ لا قرآن آخــر يمكن أن يكون هذا حاله سوى هذا القرآن الكريم كما كثر حذف مفعول فعل المشيئة

أو ما هو بمعناها من نحو الإرادة والود حيث لم يرد ذكر المفعول في هذه المواقع إلا إذا كان معه نوع غرابة فحينئذ يذكر نظير قوله تعالى :(لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء . .) فحيث كان آتخاذ الله ولداً أمراً غريباً، بل هو مستحيل آثر النظم الحكيم النص عليه .

ومن حسن مواقع حذف المفعول به ولطيفه ما في قوله تعالى : (ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ،ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ؟ قالتا :لا نسقي ، حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ، ثم تولى الى الظل) ففيه حذف المفعول في أربعة مواضع ، إذ المعنى : وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم ، أو مواشيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ، وقالتا لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما ، ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ، ويؤتى بالفعل مطلقاً وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقي ، حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى– عليه السلام – من بعد ذلك سقي ،فأما ما كان المسقي ، أغنماً أم إبلا أم غير ذلك ، فخارج عن الغرض وموهم خلافه ، وذاك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما ، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود ، بل من حيث هو ذود غنم ، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود .... فاعرفه .

تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت ، إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائده جليلة ، وأن الغرض لا يصح إلاعلى تركه[1] .

---

(١) من بلاغة القرآن الكريم د/ أحمد بدوي ص ١٢٢

حذف الجملة :

وقد يرد فى القرآن الكريم حذف الجملة من الكلام ، وذلك نظير قوله تعـالى فى شأن ذلك الرجل المؤمـن : (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) ففى الكلام تقدير سؤال ، فكأنه قيل فماذا كـان حـال ذلـك الرجل عندما قيل له :ادخل الجنة .

حذف أكثر من جملة :

وقد ورد فى القرآن الكريم كذلك حذف أكثر من جملة خصوصـاً فـى بـاب القصص القرآنى من نحو ما ورد فى شأن قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام فـى قوله تعالى : (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) ففى الكلام هنا حذف جمل والتقدير : فامتثل الهدهد أمر سـليمان عليه السلام فأخذ الكتاب منه وذهب به وألقاه إلى الملكة فأخذته منه وقرأتـه ، وحيـث كان هذا الكلام المطوى يفهم من سياق القصة كان الحذف أولى وأبلغ .

من أسرار بلاغة ما قدم و أ خر فى القرآن الكريم

يلحظ أن القرآن الكريم يورد بعض الألفاظ أو التراكيب علـــى نحــو مـــن التقديم فى موضع أو مواضع على حين تؤخر هذه الألفاظ أو التراكيب فى موضــــع أو مواضع أخرى.

ولا ريب فى أن من وراء كل من التقديم والتأخير أغراضاً وأسراراً يكشــف عن بعضها التأمل الدقيق والتنبه الواعى للسياقات وأغراض الكلام ومقاماته.

وهذا الموضوع يعد باباً جليلاً من أبواب البلاغة القرآنيـــة حيــث نــهتدى بدراسته إلى شيء من أسرار الكتاب العزيز وأغراضه واختلاف سياقاته هــذا فـــى جانب البلاغة القرآنية ، ثم إن دراسة أمثال هذه الموضوعات ذات مغـــزى خـــاص فيما يتصل بجانب الرد على أولئك الطاعنين على القـــرآن الكريـــم والمـــترصدين لأساليبه وطرق آدائه للمعانى وعرف استعماله .

ونورد هنا بعض النماذج لما قدم وأخر فى القرآن الكريم وما وراء ذلك من مغزى وغرض والله المستعان .

فقد تأتى الجملة الواحدة فى سياقين مختلفين ، أوفى سياق واحد ، ويقدم فيها المتعلق مرة ويؤخر أخرى ويكون وراء هذا التصرف مغزى جليل .

انظر إلى قوله تعالى : (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكـــم شهيدا) تأخر المتعلق على شبه الفعل فى قوله شهداء على الناس وتقدم فـــى قولـــه عليكم شهيدا ، وذلك لأن الغرض فى الأولى إثبات شهادتهم على الأمم وليس فيـــها معنى الاختصاص ، وفى الثانية اختصاصهم بكون الرسول شـــهيدا عليـــهم وليـــس مجرد إثبات شهادته عليهم ، وهكذا كان اختلاف ترتيب الكلمتين فى الموقعين مؤديـــا إلى هذا الفرق الجليل .

ومثله ما يقوله الزمخشرى فى قوله تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيـــده وهو أهون عليه) قال الزمخشرى (فإن قلت : لم أخرت الصلة فـــى قولـــه : وهـــو

أهون عليه وقدمت فى قوله وهو على هين؟ يقصد ما جاء فى قوله تعالى : (قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) . قال الزمخشرى : (قلت : هناك قصد الاختصاص وهو محزه فقيل هو على هين وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هرم وعاقر ، وأما ههنا فلا معنى للاختصاص كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى) .

وقد علق ابن المنير وهو معروف بتحرشه على الزمخشرى على هذا بقوله (كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر[١]).

ومن هذا الباب ما ورد فى قوله تعالى : (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) سورة الأنعام آية ١٠٢.

فحيث قدم هنا العبارة الدالة على التوحيد على حين وردت هذه العبارة مؤخرة فى قوله ﷻ : (خالق كل شيء لا إله إلا هو) سورة المؤمنون آية ٦٢ . يقول ابن جماعة فى هذا التقديم والتأخير لما تقدم فى الأنعام : (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم) فناسب تقديم كلمة التوحيد النافية للشرك ردا عليهم ، ثم ذكر الخلق.

ولما تقدم فى المؤمن كونه خالقا بقوله تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) سورة غافر آية ٥٧.

ناسب تقديم كلمه (الخلق) ثم (كلمه التوحيد). أما تقديم بعض المتعلقات على بعض فإنه يجرى على نسق دقيق من مراقبة المعانى ومتابعة الأحوال وهو متشعب النواحى ، وحسبنا هنا أن نشير إلى ما يكشف لنا شيئا من خلال الأساليب فى هذا الباب مقتبسين من كلام الزمخشرى والعلوى وابن جماعة.

فمن الأسس التى بنى عليها ترتيب المتعلقات أنهم يقدمون منها ما هو أوثق صلة بغرض الكلام وسياقه ، انظر إلى قوله تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم) وقوله فى آيه أخرى : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق .

([١]) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ط . وهبة بمصر

نحن نرزقهم وإياكم) قال فى الأولى نرزقكم وإياهم ، فقدم ضمير المخاطبين علـــى الأولاد ، وقال فى الثانية نحن نرزقهم وإياكم فقدم ضمير الأولاد على المخـــاطبين، وذلك لأن الخطاب فى الأولى للفقراء بدليل قوله من إملاق المفيد أنهم فـــى إمـــلاق فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم لأنهم فى حاجة إليه فقدم الوعد برزقـــهم على الوعد برزق أولادهم . والخطاب فى الثانية للأغنياء بدليل قوله خشية إمـــلاق فإن الخشية إنما تكون من أمر لم يقع فكان رزق أولادهم فـــى هـــذا الســياق هـــو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقـــهم، وهذا فى غايه الدقة كما نرى [١].

وحول هذا التقديم والتأخير يذكر ابن جماعة: أن قوله تعالى : (من إمـــلاق) وهو الفقر ، خطاب للمقلين الفقراء أى : لا تقتلوهم من فقر بكم ، فحســـن : (نحـــن نرزقكم) ما يزول به إملاقكم ثم قال : (وإياهم) أى نرزقكم جميعا . وقوله تعـــالى : (خشية إملاق) خطاب للأغنياء ،أى خشية إملاق يتجـــدد لكـــم بســـببهم ،فحســـن : (نرزقهم وإياكم)[٢].

وقد هدى الذين نظروا فى القرآن الكريم إلى أسرار لطيفة فى هـــذا البـــاب قالوا: إن تقديم الإنس على الجن هو الأكثر الشائع فى المصحـــف وذلـــك لشـــرف الإنس حيث منهم النبيون والرسل ، ومن ذلك قوله تعالى : (لم يطمثهن إنس قبلـــهم ولا جان) ، وقوله : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) وقوله : (وأنا ظننـــا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا) أما قوله تعالى : (يا معشر الجن و الإنـــس) فإنما قدم فيه الجن لأن المقام مقام تسلط واجتراء و الجن بذلك أحق فلهذا قدمـــهم [٣] كما أن الغرض المقصود بمخاطبة الثقلين من قبله تعـــالى التحـــدي و التعجـــيز .

([١]) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى .

(٢) كشف المعانى فى المتشابه من المثانى لابن جماعة تحيق د/عبدالجواد خلف.
منشورات جامعة الدراسات الإسلامية – باكستان .

([٣]) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى.

ويلحظ في هذه الآية الكريمة إيثار النظم الكريم طريق الجمع مع ضمائر المخاطبين: استطعتم – تنفذوا – لا تنفذون . خلافا لمقتضى ظاهر النسق حيث الخطاب مع نوعى الإنس و الجن المقتضى لتثنية الضمائر و من وراء هذا العدول إشارة إلى قصد التعميم فى هذه المخاطبات بحيث تتناول سائر أفراد كل نوع من نوعى الإنس و الجن فلا يند و لا يشذ عنه أحد و هذا التعميم دون ريب أدخل فى الغرض المراد و أنسب بمقام التحدي و التعجيز و الله أعلم بحقيقة مراده .

ويدخل فى هذا الباب كذلك ما نلحظه من تقديم لفظ الآخرة على الأولى فى قوله تعالى : (فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى) وقوله سبحانه : (وللآخرة خير لك من الأولى) خلافا لما جرى عليه عرف الإستعمال القرآني من تقديم لفظ الأولى على لفظ الآخرة .

ومرد التقديم فى الآيتين إلى خصوص السياق والغرض المراد مع كل منهما فالتقديم فى الآية الأولى يشعر بمعنى المبالغة فى أمر العذاب المتوعد به فرعون فى الآخرة وأنه سوف يكون على حال أشد وأقصى مما أخذ به فى الدنيا مع ما كان عليه من شدة فى الأخذ على نحو صار عبرة ومثلا.

وأما فى آية الضحى فالتقديم لأن المقصود بالآخرة ليس المتبادر من الحياة الآخرة على ما يذكره كثير من المفسرين ، وإنما المراد والله أعلم نزول الوحى مرة أخرى بعد إنقطاعه زمنا عنه – ﷺ – ويؤيد هذا الفهم أن السورة الكريمة واردة أصلا فى سياق تطمينه – ﷺ – وبعث الأمل والرجاء فى نفسه الشريفة وانتزاع التوجس خاصة أن عمد الشرك وأركان الكفر قد انتهزوا الفرصة وأخذوا يشمتون ويتقولون فكانت هذه الآيات المباركات دحضا لهذه المفتريات وتسكينا لفؤاده – ﷺ – فناسب هذا الغرض الجليل تقديم لفظ الآخرة المعبر به عن الوحى الذى سوف يدوم بشارة بما يطمئن النفس ويؤنس القلب ، وهذا الغرض لا ينفى ما يكرره بعض البلاغيين من أن التقديم هنا مراعاة لحق الفواصل ، فلا منافاة بين التوجيهين .

أبرز الخصائص البلاغية للفظة القرآنية

يمتاز اللفظ القرآني بخصائص عديدة ومن أبرزها :

أولا : أن بلاغة اللفظ القرآني من حيث حسن الموقع في النظم :

فالكلمة لا تفضل غيرها منفردة من حيث هي ألفاظ مجردة منفردة ، ومن حيث دلالة كل لفظ على معناه إلا أن تكون اللفظة أخف نطقاً من أخرى ، أو أكثر استعمالاً وجرياناً على الألسنة فإذا نظمت الكلمة في جملة ، صارت دالة على نصيبها من المعنى ، وصار من حقنا أن نسأل : لم اختيرت هذه الكلمة دون تلك ، ولم آثرنا صيغة على أخرى ؟

وإن الأسلوب قد يروعنا ويبهرنا ، فإذا أخذت مفرداته كل مفردة على حدة ، فقد لا تجد فيه كبير روعة ، ولا قوة أسر ، ولكن عندما انتظمت هذه المفردات في سلك ما قبلها ، وارتبطت بما بعدها ، اكتسبت جمالاً وجلالاً ، وإن شئت فانظرإلى قوله تعالى :(وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين) فإننا إذا أخذنا كل كلمة على حدتها ، من غير نظر إلى ما قامت به من أداء حظها المقسوم لها في معنى الجملة كلها ، فقد لا نجد لها من التأثير ما نجده لها ، وهي بين أخوتها تؤدى معناها .

وهنا يحق لنا أن نسأل عن فضل الكلمة في موضعها وتتبين جمال اختيارها ، وندرك ما لها من الميزة على صاحبتها ، وإذا سلكنا هذا المسلك في الآية الكريمة ، رأينا الآية تصور ما حدث بعد الطوفان ، من ابتلاع الأرض ماءها ونقاء السماء بعد أن كانت تغطى بسحبها ، واستواء السفينة على الجودى ، وقد طهرت الأرض من رجس المشركين ، فصور الله ذلك تصويراً حسياً ، يؤكد في نفسك استجابة هذه الطبيعة العظيمة ، وخضوعها لأمر الله فهذا المطر المدرار ينهمر من السماء ، وهذا الماء الطاغي يجتاح نواحي الأرض ، وهذا الاضطراب في أرجاء الكون،

لم يلبث أن سكن واستقر ، وعادت الطبيعة إلى هدوئها ، عندما تلقت أمر الله لـها أن تسكن وتهدأ ،ولكن لما كان هذا الأمر قد صدر إلى الكون من غير أن يسمعه مـــن فى الكون ، أو يرو قائله ، بنى الفعل للمجهول كما ترى ، وأوثر فى نـــداء الأرض (يا) دون الهمزة ، لما يدعو اجتماعها مع همزة أرض إلى ثقل علـــى اللســـان فـــى النطق بهما ، وأوثر تنكير الأرض لما فى ذلك من تصغير أمرهـــا ، فالمقـــام هنـــا يستدعى ذلك التصغير ، ويستدعى الإسراع بتلبية الأمـــر ، وذلـــك لا يكـــون مـــع التعريف المقتضى لإطالة الكلام بآيتها ، وجاءت كلمة ابلعى هنا مصورة لما يـــراد أن تصنعه الأرض بمائها ، وهو أن تبتلعه فى سرعة ، فهى هنا أفضل من امتصـــى مثلا ، لأنها لا تدل على الإسراع فى التشرب ، وفى إضافة الماء إليها مـــا يوحـــى بأنها جديرة بأن تمتص ماء هو ماؤها ، فكأنها لم تكلف شططا من الأمـــر ، وقـــل مثل ذلك فى قوله : (ويا سماء أقلعى) ، ولاحظ هذا التناسق الموسيقى بيـــن ابلعـــى وأقلعى ، وبنى (غيض) للمجهول ، مصورا بذلك إحساس من شاهدوا هذا المنظـــر الطبيعى ، فهم قد رأوا الماء يغيض والأمر يتم ، وكأنما قد حدث ذلك مـــن تلقـــاء نفسه ، من غير أن يكون ثمة فاعل قد فعل ، واختيرت كلمة اســـتوت دون رســـت مثلا لما فى كلمة استوى من الدلالة على الثبات المســـتقر ، وبنـــى الفعـــل (قيـــل) للمجهول ، إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يعد لكثرة ، حتى لكأن أرجـــاء الكون تردد هذا الدعاء ، و جاءت كلمة (بعدا) دون (هلاكا) مثلا إشـــارة إلـــى أن هلاك هؤلاء القوم الظالمين إنما قصد به إبعـــادهم عـــن الفســـاد فـــى الأرض ، و السخرية بمن آمن وعمل صالحا ، و توحى كلمة : بعدا بالراحة النفسية التى شـــعر بها من في الكون ، بعد التخلص من هؤلاء الظلمة الطغـــاة و هكـــذا نـــرى الآيـــة الكريمة قد صورت هذا المشهد من هلاك الظلمة و نجاة أهل الإيمان أدق تصوير و أبلغه مع أداء كل لفظة و كل حرف نصيبه من المعنى و الدلالـــة بمـــا ينســـجم و الغرض المراد .

ثانيا:الدقة البالغة في اختيار و إيثار اللفظ الأنسب للموقع الأنسب نطقا و معنى و دلالة.

يأتي اللفظ القرآني على نحو من الدقة و الاختيار لما هو أنسب له موضعا و ذلك لما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها فيستخدم كلاً حيث يؤدي معناه في دقة فائقة نكاد بها نؤمن بأن هذا المكان كأنما خصت به تلك الكلمة بعينها ، وأن كلمة آخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها ، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعني أقوى أداء ، و لذلك لانجد في القرآن الكريم ترادفا ، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدا . و لما بين الكلمات من فروق و لما يبعثه بعضها في النفس من إيحاءات خاصة ، دعا القرآن الكريم ألا يستخدم لفظ مكان آخر فقال : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لم يدخل الإيمان في قلوبكم) فهو لا يرى التهاون في استعمال اللفظ و لكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس و لا تمويه . و لما كانت كلمة (راعنا) لها معنى في العبرية مذموم ، نها المؤمنين عن مخاطبة الرسول ﷺ - بها فقال : (يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا) فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ ، يؤدى به المعنى ولننظر فى قوله تعالى : (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) تجده قد اختار الفعل ذبح ، مصورا به ما حدث ، وضعف عينه للدلالة على كثرة ما حدث من القتل ، فى أبناء إسرائيل يومئذ ، ولا تجد ذلك مستفادا إذا وضعنا مكانها كلمة يقتلون ، كما ورد الفعل على صياغة المضارع إيذانا بتكرار أمر الذبح مما يشعر بمدى فضل الله على هؤلاء حين خلصهم منه ، مما كان ينبغى معه الشكر والانتهاء عما هم عليه من جحود وكفران ، كما أن الابتداء بكلمة (إذ) يستذكرهم بأوان ذلك ويستحضر لهم تلك الحال التى كانوا عليها من التعذيب والتذبيح ، وإيثار كلمة : (يسومونكم) لما فى مادتها وصياغتها من معنى بالغ التعذيب إلى الحد الذى تبقى فى المعذب آثار هذا التعذيب ، وأن هذا التعذيب متجدد ومتكرر أيضا .

ونلمح مع إيراد كلمة (حياة) على صيغة التنكير فى قوله ﷻ :(ولكم فــى القصاص حياة ...) معنى التفخيم والتكريم وفى ذلــك إشــعار بمــا وراء تشــريع القصاص والعمل عليه إذ به صيانة الأنفس وصيانة الحياة من المارقين والمجــترئين على حدود الله .

وأما تنكير كلمة حياة فى قوله تعالى : (ولتجدنهم أحرص الناس على حيــاة) فلأنه يعبر تعبيرا دقيقا عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها ، مــهما كانت حقيرة القدر ، ضيئلة القيمة ، فلنتأمل كيف أفاد التنكير هنا خلاف ما أفاده مــع الآية الكريمة بما هو على الضد ، وذلك لاختلاف الســياقين وتبــاين الغرضيــن ، وعندما أضيفت هذه الكلمة إلى ياء المتكلم ، فى قوله تعــالى : (وجــىء يومئــذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتنى قدمت لحياتى) عــبرت أدق تعبير عن شعور الانسان يومئذ ، وقد أدرك فى جلاء ووضوح ، أن تلك الحيــاة الدنيا لم تكن إلا وهما باطلا ،وسرابا خادعا ، أما الحياة الحقة الباقية ، فــهى تلــك التى بعد البعث ، لأنها دائمة لا إنقطاع لها ، فلا جرم أن سماها حياته ، وندم علــى أنه لم يقدم عملا صالحا ، ينفعه فى تلك الحياة .

وإذا ما قرأنا قوله تعالى : (إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فوقــاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) نجد كلمــة عبــوس قــد اســتعملت أدق استعمال ، لبيان نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم ، فإنهم يجدونه عابسا مكفهرا ، ومــا أشد اسوداد اليوم ، يفقد فيه المرء الأمل والرجاء ، وكلمة قمطريــرا بثقــل طائــها مشعرة بثقل هذا اليوم !، وفى كلمتى النضرة والسرور تعبير دقيق عــن المظــهر الحسى لهؤلاء المؤمنين ،وما يبدو على وجههم من الإشراق ، وعما يملأقلوبهم مــن البهجة .

ومن دقة التمييز بين معانى الكلمات ، ما تجده من التفرقة فى الاســتعمال: بين يعلمون ، يشعرون ، ففى الأمور التى يرجع إلى العقل وحده أمر الفصل فيــها ، تجد كلمة (يعلمون) صاحبة الحق فى التعبير عنها ، أما الأمور التى يكون للحــواس

مدخل في شأنها ، فكلمة (يشعرون) أوفى بها ، وتأمل لذلك قوله تعالى : (ألا إنـــهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) فالسفاهة أمر مرجعه إلى العقل .

وأما قوله تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكـــن لا تشعرون) فمن الممكن أن يرى الأحياء وأن يحس بهم ، وقوله تعالى : (واتبعـوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون)

فالعذاب مما يشعر به ويحس ، وقوله تعالى :(ألا إنـــهم هــم المفســدون ولكـــن لا يشعرون) و قوله تعالى : (قالت نملة يا أيها النمـــل ادخلـــوا مســـاكنكم ليحطمنكـــم سليمان و جنوده و هم لا يشعرون) و قوله تعالى : (و قالت لأخته قصيه فبصـــــرت به عن جنب و هم لا يشعرون) فكل هذا و نحوه مما يحس أو يتصور فيه ذلك .

واستخدم القرآن الكريم كلمة التراب ، و لكنه حين أراد هذا التراب الدقيـــق الذي لا يقوى على عصف الريح ، استخدم الكلمة الدقيقة وهي الرماد ، فقـــال : (و الذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) كما أنه آثـــر عليـــها كلمة الثرى عندما قال : (تنزيلا ممن خلق الأرض و السموات العلى الرحمن علـــى العرش استوى له ما في السموات و ما في الأرض و ما بينهما و ما تحت الـــثرى) لأنه يريد على ما يبدو من سياق الآيات الكريمة – الأرض المكونة من الـتراب ، و هي من معاني الثرى ، فضلا عما في اختيار الكلمة من المحافظة على الموســـيقى اللفظية ، في فواصل الآيات .

و قد يحتاج المرء إلى التريث و التدبر ، ليدرك السر في إيثار كلمة علـــى أخرى ، و لكنه لا يلبث أن يجد سمو التعبير القرآني ، فمن ذلك قوله تعالى : (قـالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما و يذهبـــا بطريقتكـــم المثلى فأجمعوا كيدكم ،ثم ائتوا صفا و قد أفلح اليوم من استعلى قالوا يا موسى إمـــا أن تلقي و إما أن نكون أول من ألقى) فقد يبدو للنظرة العاجلة أن الوجه أن يقـــال : إما أن تلقي و إما أن نلقي ، و ربما يتوهم أن سر العدول يرجع إلى مراعاة النغـــم

الموسيقي فحسب حتى تتفق الفواصل في هذا النغم ، و ذلك ما يبدوا بادئ الـــرأي ، أما النظرة الفاحصة فإنها تكشف رغبة القرآن الكريم في تصويـــر نفســية هــؤلاء السحرة ، و أنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى بسحرهم ، خائفين ، أو شـــاكين فــي نجاحهم ، و إنما كان الأمل يملأ قلوبهم في نصر مؤزر عاجل ، فهم لا ينتظـــرون ما عسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عندما ألقى عصاه ، بل كانوا مؤمنين بـــالنصر ، سواء أألقى موسى أولا ، أم كانوا هم أول من ألقى .

و من ذلك قوله تعالى : (و إن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) فقـد يتراءى أن وصف الشقاق و هو الخلاف ، بالقوة أولى من وصفه بـــالبعد ، و لكــن التأمل يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه خلاف تتباعد فيه وجهات النظــر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء ، ولا يدل على ذلك لفظ غير هذا الفظ الــذى اختــاره القرآن . ومن ذلك قوله تعالى : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلـــى كـل ضامر يأتين من كل فج عميق) فربما كانت الموسيقى والفاصلة فى الآية الســـابقة دالية – يجعل من المناسب أن يوصف الفج بالبعد ، فيقال : فج بعيد ، ولكن إيثـــار الوصف بالعمق ، تصوير لما يشعر به المرء أمام طريق حصر بين جبلين ، فصــار كأنه له طولا ، وعرضا، وعمقا

ثالثا :<u>إيثار النظم القرآنى للفظة المصورة للمعنى والمجسدة له .</u>

ومن هذا ما نراه فى قوله تعالى : (إن يشأ يسكن الريح ، فيظللن رواكــد علـــى ظهره) إذ الشأن فى أمر الريح الحركة فالتعبير بلفظ (يسكن) يصـــور الريــح وقــد تحول عن طبيعته وصار إلى حال السكون بقدرة الله تعالى ومشيئته التى لا يعجزهـا شيء ، ونظير هذا فى القرآن الكريم كثير ولهذا الاتجاه القرآنى إلى ناحية التصويــر ، نراه يعبر عن المعنى المعقول بألفاظ تدل على محسوسات ، مما أفرد له البيـانيون علما خاصا به دعوه علم البيان وهذا دون ريب له أثر قوى على النفس ، ذلـــك أن تصوير الأمر المعنوى فى صورة الشيء المحسوس يزيـــده تمكنـــا مـــن النفـــس ، وتأثيرا فيها ، ويكفى أن تقرأ قوله تعالى : (ختم الله على قلوبـــهم وعلـــى ســـمعهم

وعلى أبصارهم غشاوة) وقوله تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هــواه ، وأضلــه الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه) لترى قدرة كلمة ختم ، فــي تصويــر امتنــاع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس . وقوله تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم مــن الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم مــن النــور إلــى الظلمات) لترى قيمة كلمتى الظلمات والنور ، فى إثارة العاطفــة وتصويــر الحــق والباطل وقوله تعالى: (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) لترى قيمة هــذه الصفــات التى تكاد تخرجهم عن دائرة البشر وقوله تعالى : (ينقضون عهد الله من بعد ميثاقــه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) فكلمات ينقضون ويقطعون ويوصل ، تصــور الأمور المعنوية فى صور المحس الملموس .

رابعا : إيثار القرآن الكريم للألفاظ الموحية أو الملوحة أو الرامزة إلى المعنى والغرض .

ففى القرآن الكريم كثير من الألفاظ ، تشع منها قوى توحــي إلــى النفــس بالمعنى وحيا ، فتشعر به شعورا عميقا ، و تحس بجو الفكرة إحساسا قويا . فخــذ مثلا قوله تعالى : (و الليل إذا عسعس ، و الصبح إذا تنفس) فتأمل ما توحــى بــه كلمة تنفس ، من تصوير هذه اليقظة الشاملة للكون بعد هدأة الليل ، فكأنمــا كــانت الطبيعة هاجعة هادئة ، لا تحس فيها حركة و لا حياة ، و كأنما الأنفاس قد خفقت ، حتى لا يكاد يحس بها و لا يشعر ، فلما أقبل الصبح صحا الكون ، و دبت الحيــاة في أرجائه و قوله تعالى : (لقد تاب الله على النبي و المهاجرين و الأنصــار ... و على الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بمــا رحبــت ، و ضــاقت عليهم أنفسهم ، و ظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبــوا ، إن الله هو التواب الرحيم) وقف عند كلمة ضاق في ضاقت عليهم أنفسهم ، فإنــها توحــي إليك بما ألم بهؤلاء الثلاثة من الألم و الندم ، حتى شعروا بأن نفوسهم قــد امتــلأت من الندم امتلاء فأصبحوا لا يجدون في أنفسهم مكانا ، يلتمســون فيــه الراحــة و الهدوء ، فأصبح القلق يؤرق جفنهم ، و الحيرة تســتبد بــهم ، و كأنمــا أصبحــوا

يريدون الفرار من أنفسهم ، و لنقرأ قوله تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفا و طمعا) و تبين ما تثيره في نفسك كلمة تتجافى ، من هذه الرغبة الملحة التى تملك على المتقين نفوسهم ، فيتألمون إذا مست جنوبهم مضاجعهم ، و لا يجدون فيها الراحة و الطمأنينة ، و كأنما هذه المضاجع قد فرشت بالشوك ، فلا تكاد جنوبهم تستقر عليها حتى تجفوها و تنبو عنها ، و كذلك كلمة (ينسلون) في قوله تعالى : (و هم من كل حدب ينسلون) (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) فالكلمة هنا مصورة لحال الناس حين خروجهم من قبورهم ليوم القيامة و الحساب و هم يتدافعون و ينفصل كل منهم عن غيره بعد أن كانت تضمهم بطون الأرض و تطويهم تحت طبقاتها فإذا هم الآن يتمايزون كما تتمايز خيوط الثوب الواحد و ينفصل عن غيره مما تبدو معه عظيم القدرة الإلهية على هذا النحو المعجز ، و كذلك عن كلمة يعمهون فى قوله تعالى : (الله يستهزئ بهم ، و يمدهم فى طغيانهم يعمهون) فإن اشتراك هذه الكلمة مع العمى فى الحروف ، كفيل بالإيحاء إلى النفس ، بما فيه هؤلاء القوم ، من حيرة واضطراب نفسي ، لا يكادون به يستقرون على حال من القلق .

و قد تكون الكلمة فى موضعها مثيرة لمعنى لا يراد إثارته ، فيعدل عنها إلى غيرها ، تجد ذلك فى قوله تعالى : (و أنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة و لا ولدا) فقد آثر كلمة صاحبة على زوج و امرأة ، لما تثيره كلاهما من معان ، لا تثيرهما فى عنف مثلهما – كلمة صاحبة .

و قد يكون الجمع بين كلمتين هو سر الإيحاء و مصدره ، كالجمع بين الناس و الحجارة فى قوله تعالى : (فإن لم تفعلوا ، و لن تفعلوا ، فاتقوا النار التى و قودها الناس و الحجارة ، أعدت للكافرين) فهذا الجمع يوحى إلى النفس بالمشاكلة بينهما و التشابه . و قد تكون العبارة بجملتها هى الموحية كما نجد ذلك فى قوله تعالى : (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) أولا تجد هذه الثياب من النار

موحية لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب أليم ، فقد خلقت الثياب يتقي بها اللابس الحر و القر ، فماذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران .

و من هذا الباب قوله تعالى : (لهم من فوقهم ظلل من النار ، و من تحتهم ظلل ، ذلك الذى يخوف الله به عباده ، يا عباد فاتقون) فإن الظلة إنما تكون ليتقى بها وهج الشمس فكيف إذا كانت الظلة نفسها من النيران .

و هناك عدد كبير من ألفاظ ، تصور بحروفها ، فهذه الظاء و الشين في قوله تعالى : (يرسل عليكما شواظ من نار و نحاس فلا تنتصران) و الشين و الهاء فى قوله تعالى : (و للذين كفروا بربهم عذاب جهنم و بئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا ، و هى تفور) .

هذا و مما ينبغى الإشارة إليه ، أن القرآن الكريم قد أقل من استخدام بعض الألفاظ ، فكان يستخدم الكلمة مرة أو مرتين ، و ليس مرجع ذلك لشيء سوى المقام الذى يستدعى ورود هذه الكلمة .

خامسا : وفرة المعاني والاحتمالات فى اللفظ القرآنى .

ومن خصائص اللفظ القرآنى ما نراه من وفرة الاحتمالات وتكاثر المعانى المستنبطة فاللفظ الواحد يتفاوت الناس والعلماء فى الأخذ منه بما يلائم حال كل وفهمه وإدراكه وقد نرى اللفظ والتركيب وقد احتشدت فيه المعانى احتشادا على نحو لا يتحتم معه انتفاء احتمال منها بل قد يكون الكل صحيحا وصوابا وله ما يدل عليه أو يرشد إليه من سياق وقرائن بل قد يقرأ الواحد اللفظة القرآنية فيفهم منها معنى حتى إذا ما عاود القراءة أتاه معنى آخر وهكذا ، وهذا دون ريب من عطاء القرآن الكريم الذى لا ينفد .

ونشير هنا إلى نموذجين للتدليل على ما نحن بصدد الحديث عنه .

الأول : ويدخل فيما يعرف عند أهل البلاغة والبديع بالإدماج نظير ما في قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) .

الآية الكريمة مسوقة أصلا لغرض تعجيز هؤلاء المرتابين في القرآن الكريم من أولئك المشركين ممن كانوا معاصرين لعهد المبعث وقد شككوا في القرآن الكريم وصدق الإخبار به عن الله تعالى .

وإذا كان الغرض الصريح والظاهر من مساق الآية الكريمة وسياقها هو كمال التحدي لكل شاك أو مرتاب حول القرآن الكريم ومنزله ، أو المنزل عليه ، أو مشكك في شيء من ذلك فإن من وراء هذا الغرض الأصيل غرضا آخر يرمي إليه هذا النظم الحكيم ونلمحه يتداعى إلى الأذهان ،ففي الآية الكريمة إدماج توبيخ أمثال هؤلاء المشركين على الشرك في أثناء التعجيز عن المعارضة ،فإن قوله تعالى : (وادعوا شهداءكم من دون الله) الوارد على سبيل العطف على أمر التحدي (فأتوا بسورة من مثله) قبله ، يناصر هذا الغرض ، فالمراد هنا ادعوا آلهتكم بقرينة قوله من (دون الله) أي : ادعوهم من دون الله كدأبكم في الفزع إليهم عند مهماتكم معرضين بدعائهم واستنجادهم عن دعاء الله واللجوء إليه [1] .

الثاني : ويدخل فيما يعرف بالافتنان .

وربما يلتبس الأمر بين كل من الإدماج والافتنان من حيث إنه يراد بكل منهما أكثر من معنى وغرض ، غير أن الإدماج مشروط بأن لا يكون في الكلام ما يدل على الغرض الآخر تصريحا أو إشعارا ، فللمتكلم غرض أصل الكلام له ويرشد السياق إليه، وأما الغرض الآخر أو المعاني الأخرى فمطوية في الكلام ومدرجة فيه، لكن الأمر بالنسبة لما سموه بالافتنان مختلف ،



([1]) من بديع الإيجاز الاكتفاء والإدماج – د/ محمد علي أبو زيد

فالمتكلم من أول الأمر يعمد إلى غرضين أو أغراض ، كل منـــهما مقصـــود أصالة ، وفى الكلام أو السياق ما يدل عليهما جميعا بالسوية.

وقد جاء فى الكتاب العزيز من هذا الافتنان نوع غريب ، وهو الجمع بين التعزيـــة والفخر ، وذلك فى قوله تعالى : (كل من عليها فان ويبقى وجه ربــك ذو الجـــلال والإكرام) فإنه سبحانه عزى جميع المخلوقات من الإنس والجن وســـائر أصنـــاف الحيوانات ومشى على الأرض من كل قابل للحياة ، وملائكة الســـموات ، وتمـــدح بالانفراد بالبقاء بعد فناء الموجودات فى عشر لفظات، مع وصفه سبحانه ذاته بعـــد انفراده ، بالبقاء بالجلال والإكرام وحق له ذلك سبحانه [١].

والحق أن أمثال هذه الضروب مما لا يكاد يلتفت إليها دارسوا البلاغة فهى مغيبـــة ، بل إن هذا الموضوع على وجه العموم لم ينل فيما اعتقد نصيبه من الدرس والفـــهم على النحو الذى تستوجبه البلاغة القرآنية .



(١) من بديع الإيجاز الاكتفاء والإدماج - د/ محمد على أبو زيد

مما لا ريب فيه أن علم المناسبة علم شريف ، وله في البلاغة القرآنية موقع، وتحته أسرار وغايات جليلة. والمناسبة في اللغة : المقاربة ، وفلان يناسب فلاناً، أي يقرب منه ويشاكله ، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل ، كالأخوين وابن العم ونحوه.

وهو عبارة عن جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم ، المتلائم الأجزاء.

وقد بهرت طريقة القرآن الكريم خبراء اللغة والمشتغلين بأسرارها وتصاريف كلامها لما فيها من روعة الإنسجام بين المعاني المختلفة في جوهرها المنفصلة بطبيعتها ، فالقرآن الكريم على ما امتاز به أسلوبه من اجتناب سبيل الإطالة ، والتزام جانب الإيجاز بقدر ما يتسع له جمال اللغة – قد جعله أكثر الكلام افتناناً في شئون القول ، وأسرعه تنقلاً بينها . من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى جدل ... إلى ضروب شتى من المعاني والفنون تبدو وكأنها وحدة واحدة ، شديدة التماسك .

(وعلى هذه القاعدة ترى القرآن الكريم يعمد تارة إلى الأضداد ، ويجاور بينها فيخرج بذلك محاسنها ومساويها في أحلى مظاهرها . ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في إحكامها يسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير والتفريع، والاستشهاد أو الاستنباط ، أو الاحتراس ... إلى غير ذلك ، وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي ، أو تجاوز شيئين في الوضع المكاني دعامة لاقترانهما في النظم . فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجاً وما هو بخروج ، فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من تلك الوجوه – رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر إما

بحسن التخلص والتمهيد ، وإما بإماله الصيغ التركيبية علــى وجــه يتلاقـى فيــه المتباعدان ويتصافح المتنافران).

ومع أهمية الموضوع إلا أنه يلحظ قلة أو ندرة من عنى به تفصيلا من أهـل العلم والتفسير ولعل مرد ذلك إلى لطفه ودقته واستتار مقاصده وأغراضه .

وممن عنى به على نحو مفصل العالم المفسر البقاعى فى كتابه المتفرد فى بابـــه : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور وهذا التفسير يعد بحق أفضل ما كتب فى هـذا الباب حتى الآن وأكثر ما قيل بعده مأخوذ عنه أو تعقيب عليه أوإضافة إليه ، كمـــا أن بعض المفسرين أمثال أبى حيان صاحب البحر المحيط ، وكذا الفخــر الــرازى صاحب مفاتيح الغيب قد عرضا كثيراً لأحاديث المناسبات بين الآيات وبين السور ، كما أن الزركشى قد عقد فصلا مهما فى البرهان تحدث فيه عن هذا الموضـــوع ، وقد أخذ معظمه عنه السيوطى فى الاتقان لكن يبقى على كل حال صـــاحب نظـم الدرر على رأس أئمة هذا الباب .

موقف المنكرين أو المتحفظين :

وقد خالف فريق من أهل العلم بحسن نية أو بضعف إدراك ما يكاد يجمـــع عليه الثقاة من أهل العلم والتفسير وما يشهد به الواقع من وقـــوع أمـر المناسـبة والاعتداد بها فى الكتاب العزيز.

وممن ينكرون أمر المناسبة أبو العلاء بن غانم المعروف بالغـــانمى يقـول (إن القرآن الكريم إنما ورد على الاقتضاب الذى هو طريقة العرب من الانتقال إلـى غير ملائم. وأن ليس فى القرآن الكريم شيء من حسن التخلص).

وأما العز بن عبد السلام فقد بدا وكأنه على شيء غير قليل من التردد فـى قبول أمر المناسبة والقول به فى القرآن الكريم .



وقال العز بن عبد السلام : (المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط فى حســن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره . فــإن وقــع علــى أســباب

مختلفة لم يقع فيها ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لايقدر عليـــه إلابربـــط ركيك ،يصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه فإن القرآن الكريم نزل فـــى نيف وعشرين سنه فى أحكام مختلفة . وما كان كذلك لا يتأتى فيه ربـــط – بعضـــه ببعض [١] .

مبنى الشبهة عند المنكرين والمتحفظين :

وقد بنى هؤلاء فكرتهم على ثلاثة اعتبارات :

أولها: ما فى القرآن الكريم من تعدد الأغراض والمقاصد .

ثانيها: الامتداد الزمنى والمكانى .حيث اسغرق نزوله ثلاثاً وعشـــرين ســـنة فـــى موطنين مختلفين لهما اعتبارات متعددة ، وهما مكة ، والمدينة وقد اختلفـــت الموضوعات التى عولجت فى كل منهما عن الأخرى.

ثالثهما: نزوله مفرقاً منجماً حسب المناسبات والدواعى ، فســـورة البقـــرة – مثـــلاً استغرق نزولها تسع سنوات . وجمعت فى آياتها أحداثاً كان الفارق الزمنـــى بين وقوعها كبيراً . وقد وهم الغانمى والعز بن عبد السلام فى ذلك ، ولـــو أنهما لجآ إلى الفكر وأحسنا النظر بدراسة عقد المعانى فى القـــرآن الكريـــم نفسه لرجعا عما قالاه ، ولا ستغفرا الله ربهما .

رد الشبهة :

وقد فند المتأخرون شبهات هذه الفكرة وضربوا أمثلة كثيرة لجـــودة الربـــط بين المعانى فى القرآن الكريم ، من المواضع التى يظن المتعجل ان الربط معـــدوم بينها.

من هؤلاء ضياء الدين بن الأثير فى (المثل السائر) ، والزركشى فى (البرهان).

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ص٢٧٨ – البرهان فى علوم القرآن جـ١ ص ٣٧

جاء فى المثل السائر: (وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى :إن كتاب الله خال من التخلص . وهذا قول فاسد ، لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذى خرج منه ، والكلام الذى خرج إليه . وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة كالخروج من الوعظ والتذكير والإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهى ووعد ووعيد ، ومن محكم إلى متشابه . ومن صفة إلى نبى مرسل وملك منزل إلى ذم شيطان مريد وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان آخذ بعضها بركاب بعض)[1].

وفى البرهان: (قال بعض مشايخنا المحققين فمنهم من قال : لا يطلب للآى الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً ، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما فى الكتاب المكنون ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف. وحافظ القرآن العظيم لو استفتى فى أحكام متعددة ، أو ناظر فيها ، أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل ، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى ، ولا كما نزل مفرقاً ، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة. ومن المعجز البين أسلوبه ، ونظمه الباهر ، فإنه (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) قال : والذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شىء عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة ، وما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففى ذلك علم جم ، وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له.

قلت : وهو مبنى على أن ترتيب السور توفيقى ، وإذا اعتبرت افتتاح كل سوره وجدته فى غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى كافتتاح سورة الحديد بالتسبيح ، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به فى قوله تعالى : (فسبح باسم ربك العظيم) الواقعة الآية ٩٦.



([1]) خصائص التعبير القرآنى – د/ عبدالعظيم المطعنى جـ١ ص٤٠٠

وكذلك افتتاح سورة البقرة بقوله: (الم ذلك الكتاب لاريب فيه) إشارة إلى (الصراط) فى قوله: (اهدنا الصراط المستقيم) كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم : ذلك الصراط الذى سألتم الهداية إليه هو الكتاب .

وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة ، وهو يرد سؤال الزمخشرى فى ذلك .

ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتى قبلها ، لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة : البخل ، ترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة فذكر هنا فى مقابلة البخل : (إنا أعطيناك الكوثر) أى الكثير ، وفى مقابلة ترك الصلاة (فصل) أى دم عليها ، وفى مقابلة الرياء (لربك) أى لرضاه لا للناس ، وفى مقابلة منع الماعون (وانحر) ، وأراد به التصدق بلحم الأضاحى ، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة [١].

والحق أن فى أمر بعض هذه المقابلات نظر خاصة القول بمقابلة النحر بمنع الماعون مراداً به الزكاة .

ومن بديع وبليغ المناسبة بين مفتتح وختام السور ما نجده فى سورة يوسف عليه السلام حيث كان من آيات مطلع السورة المباركة قوله تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) سورة يوسف الآية ٣ ، ثم اختتمت بقوله تعالى : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) يوسف الآية ١١١ .

فلننظر ولنتأمل فى لطف هذا التناسب وبلاغته . أنه دون ريب إعجاز من إعجاز القرآن الكريم .



(١) البرهان فى علوم القرآن جـ١ ص٣٩

وأما التناسب بين آيات القرآن الكريم فمنـــه قولـــه تعـــالى: (واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبي إنه كان من الضالين . ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم . وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون . فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) سورة الشعراء الآيات من ٦٩-١٠٢ .

قال ضياء الدين معلقاً على هذا النص الحكيم : (فانظر أيها المتأمل في هـــذا الكلام الشريف الآخذ بعضه بركاب بعض مع احتوائه على ضروب من المعـــاني ، فيخلص من كل واحد منهما إلى الآخر بلطفية ملائمة حتى كأنه أفـــرغ مـــن قـــالب واحد . فخرج من ذكر الأصنام وتنفير أبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هي فيـــه من التعري عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، إلـــى ذكر الله تعالى بوصفه بصفات الإلهية فعظم شأنه ، وعدد نعمه ليعلم بذلك أن العبادة



لا تصح إلا له . ثم خرج من ذلك إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه . فتدبر هذه التخلصات اللطيفة فى أثناء هذا الكلام).

وهذا أحد مواضع ذكرها ابن الأثير للتدليل على ما للقرآن من قوة الربط والانتقال من معنى إلى آخر انتقالا مناسباً لا اقتضاب فيه .

أنواع الروابط والمناسبات فى القرآن الكريم :

ذكر الآية بعد الأخرى ، إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح ، و كذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير ، وهذا القسم لا كلام فيه .

وإما ألا يظهر الارتباط ، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلاف النوع المبدوء به . فإما أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشركة فى الحكم ، أولا .

القسم الأول أن تكون معطوفة ، ولابد أن تكون بينهما جهة جامعة كقوله تعالى : (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) ، وقوله : (والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) وفائدة العطف جعلهما كالنظيرين والشريكين .

وقد تكون العلاقة بينهما المضادة ، وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب ، والرغبة بعد الرهبة . وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعداً ووعيداً ، ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق ، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ، ليعلم عظم الآمر الناهى .

ويضع الإمام بدر الدين الزركشى قانوناً لهذه الروابط فى الجمل والمعانى غير المعطوف بعضها على بعض ، وكانت موضع توهم ألا ارتباط بينها . ويجمل هذا القانون فى ثلاثة اعتبارات هى :



أولاً : التنظير:

فإن إلحاق النظير بالنظير دأب العقلاء ومن أمثلته قوله تعالى :(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) .

عقب قوله :(أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) فإن الله ﷻ أمر رسوله أن يمضى لأمره فى الغنائم على كره من أصحابه ، كما مضى فى خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون . وذلك أنهم اختلفوا يوم (بدر) فى الأنفال ، وحاجوا النبى ﷺ وجادلوه ، فكره كثير منهم ما كان من فعل الرسول ﷺ فى النفل ، فأنزل الله هذه الآية ، وأنفذ أمره بها . وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه ، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله فى شىء ما . بعد أن كانوا مؤمنين . ووصف المؤمنين ثم قال : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) . يريد أن كراهتهم لما فعلته من الغنائم ككراهتهم للخروج معك.

ثانياً : المضادة:

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة : (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) . فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن الكريم وأن من شأنه كيت وكيت .

وأنه لا يهدى الذين من صفاتهم كيت وكيت ، فرجع إلى الحديث عن المؤمنين ، فلما أكمله عقب بما هو حديث عن الكفار . ففيهما جامع وهمى بالتضاد من هذا الوجه وحكمته التشويق والثبوت على الأول كما قيل :(وبضدها تتبين الأشياء).



ثالثاً : الاستطراد :

ومنه قوله تعالى :(يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) . قال الزركشى : قال الزمخشرى : (هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد ، عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها . إظهاراً للمنة فيما خلق الله من اللباس . ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى.

والله الموفق،،،

دليل الكتاب







